الخطابة والخطباء

" توجيهات

وصفات"

د/ عبد الرقيب الراشدي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

استهلال ٦

إهـــــداء.....٧.

المـقدمـة..... ٨

المبحث الأول: التعريفات والأهمية ١٠

أولا: التعريف اللغوي للخطبة ١٠

ثانيا: التعريف الاصطلاح للخطابة..... ١١

ثالثاً: أهمية خطبة الجمعة..... ١٢

رابعاً: حكم خطبة الجمعة ١٥

خامساً: هدي النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الجمعة ١٧

المبحث الثاني: الخِطَابَةُ في العصر الجَاهلي وفي صدر الإسلام ٢١

أولاً: الخطابة في العصر الجاهلي ٢١

من أشهر الخطباء في العصر الجاهلي ٢٢

ثانياً: الخطابة في عصر صدر الإسلام ٢٤

١- من خطب النبي صلى الله عليه وسلم..... ٢٨

٢- من خطب الخلفاء الراشدين ٣٢

- من خطب أبي بكر الصديق..... ٣٢
- من خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣٧
- من خطب عثمان بن عفان رضي الله عنه..... ٣٩

- من خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٤١

المبحث الثالث: عناصر الخطبة ومكوناتها..... ٤٣

أولاً: مقدمة الخطبة ٤٣

ثانياً: محتوى الخطبة ٤٩

ثالثا: خاتمة الخطبة ٥٧

المبحث الرابع: توجيهات لخطيب الجمعة ٥٩

أولاً: حسن اختيار موضوع الخطبة ٥٩

ثانياً: العناية بإعداد خطبة الجمعة ٦٣

ثالثاً: الحرص على الوحدة الموضوعية لخطبة الجمعة ٦٥

رابعاً: التثبت من صحة الأحاديث النبوية ٦٥

خامساً: الموازنة بين البشارة والنذارة ٧١

سادساً: تقصير خطبة الجمعة وتطويل صلاتها ٨٠

سابعاً . معالجة مشكلات المجتمع في خطبه ٨٤

ثامناً: التركيز على القضايا الكلية ٨٧

تاسعاً: النصح بالتي هي أحسن ٨٩

عاشراً: مراعاة قدرات الناس وأفهامهم ٩١

المبحث الرابع: صفات الخطيب ٩٥

أولا: محبته للخطابة ٩٥

ثانياً: العلم بالكتاب والسنة ١٠٠

ثالثاً: الإخلاص لله تعالى ١٠٩

رابعاً: عناية الخطيب بفن الإلقاء ١٢١
خامسا: الرحمة بالمدعوين ١٢٧
سادساً: أن يكون الخطيب قدوة حسنة ١٤٧
سابعاً: الصدق مع الله تعالى ١٥٥
ثامنا: الصبر على مكاره الدعوة ١٦٩
الصفة التاسعة: الشجاعة..... ١٧٧

استهلال

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[فصلت: ٣٣]

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" صحيح مسلم برقم(٤٨٣١).

إهـــــــداء

إلى التي قالت لي ذات يوم، وهي تراني مهموماً بإعداد خطبة الجمعة، أحفظ أدلتها، وأراجع عناصرها، فقالت لي: اذهب إلى المسجد واخطب الجمعة، وسأدعو لله لك، أن يشرح صدرك، وأن ييسر أمرك، فنزلت كلماتها على قلبي برداً وسلامً.

إلى والدتي، رحمها الله، وأسكنها فسيح جناته، أهدي ثواب هذا العمل.

المـقدمــة

فقد اكرمني الله تعالى بالعمل في مجال الدعوة إليه، فعلى مدار أكثر من ربع قرن من الزمان، وانا اعتلي المنابر واخطب الجمعة، والقي الدروس الخواطر المسجدية، وخلال هذه الفترة القيت المآت من الخطب والدروس والخواطر، ولله الحمد والمنة.

وقد فقني الله واخرجت ثلاثة اجزاء من الخطب التي القيتها، وهي تحت عنوان" الخطب المجموعة في المواعظ المسموعة" وقد اخرجتها ونشرتها ولله الحمد.

وخلال عملي في مجال الخطابة كانت تمر بي بعض الفوائد المتعلقة بالخطابة او بالخطيب، وكنت اجمعها في دفتر الملاحظات كرؤوس أقلام على أمل أني إذا وجدت متسعاً من الوقت سأعود إليها واجمها وارتبها بحيث يستفيد منها كل خطيب يعمل في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

وبحمد الله تعالى عندما وجدت الوقت المناسب عدت الى دفتر الملاحظات فجمعت مادة هذا الكتاب، وركزت بدرجة أساسية على التوجيهات العملية التي تتعلق بمجال الخطابة؛ والتي بها يتضح هذا العلم عند كل خطيب مشتغل بالخطابة.

ثم ذكرت بعد ذلك الصفات العملية التي ينبغي على لخطيب ان يتصف بها؛ حتى يكون أداؤه في أعلى درجات النجاح والاتقان، وقد سميت هذا الكتاب بـ " الخطابة والخطيب، توجيهات وصفات".

أسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الاسلام والمسلمين إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم بارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الرقيب عبده خالد عبد الله الراشدي

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

الجمهورية اليمنية . إب

للتواصل، لإبداء الملاحظات والمقترحات

بريدي الإلكتروني

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com

موبايل/ واتس: ٧١٢٨٤٩٥٠٥

٢٠ محرم ١٤٤٦ الموافق ٢٦/٧/ ٢٠٢٤

المبحث الأول: التعريفات والأهمية

أولا: التعريف اللغوي للخطبة

قال أهل اللغة:" التخاطب المراجعة في الكلام، الخطبة، بضم الخاء، فعلة بمعنى مفعولة، وجمعها خطب، والخطبة مشتقة من المخاطبة، ولا تكون المخاطبة إلا بالكلام بين المخاطبين، وخاطبه بالسلام مخاطبة وخطابا، وهو الكلام بين متكلم وسامع، وخطب على المنبر خطبة وخطابة، ورجل خطيب حسن الخطبة، وهو خطيب القوم إذا كان هو المتكلم عنهم، وأصل الخطبة الحالة التي يكون عليها الإنسان إذا خطب نحو: الجلسة والقعدة.

وقيل: إن الخطبة من الخطب، وهو الأمر العظيم؛ لأنهم كانوا لا يجعلونها إلا عند الخطب والأمر العظيم، فلهذا سميت خطبة. والخطب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب. قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ (طه: ٩٥)، وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (الذاريات: ٣١) وفصل الخطاب: ما ينفصل به الأمر من الخطاب.

وأما الخِطبة – بكسر الخاء – فهي طلب نكاح المرأة، وخطب الرجل المرأة إلى القوم إذا طلب أن يتزوج منهم،: فلان خطب فلانة، إذا كان يخطبها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٣٥)[1].

(1) تهذيب اللغة، للأزهري، ٧ / ٢٤٦، المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، صـ ٢٨٦، القاموس

ثانيا: التعريف الاصطلاح للخطابة

ورد للخطابة عدة تعريفات اصطلاحية متقاربة، ومن هذه التعريفات ما قاله الفيروز آبادي حيث قال:" الخطابة: هي اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، أو هي الكلام المنثور المُسَجَّع ونحوه " [٢].

وقال الزجاج: إنها قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة، من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم [٣].

وقيل : بأنها الكلام المؤلف المُتضمِّن وعظا وإبلاغا [٤].

قال الشيخ محمد أبو زهرة: "الخطابة مصدر خطب يخطب أي صار خطيبًا، وهي على هذا صفة راسخة في نفس المتكلم يقتدر بها على التصرف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم، فالخطابة من مهامها التأثير في نفس السامع ومخاطبة وجدانه، وإثارة إحساسه للأمر الذي يراد منه، ليذعن للحكم إذعانًا ويسلم به تسليمًا"[٥].

وقيل: بأنها فنّ من فنون الكلام، يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معا [٦] .

---

(٢) القاموس المحيط، للفيروز آبادي،١ / ٦٥.

(٣) التعريفات، للجرجاني صـ ٩٩.

(٤)" لغة الفقهاء، للنووي صـ ٨٤.

(٥) الخطابة أصولها وتاريخاه، للشيخ محمد أبي زهرة، صـ ٢٤.

(٦) الخطابة في الإسلام، د مصلح سيد بيومي صـ١١ .

وقال الدكتور أحمد الحوفي في تعريف الخطابة: "هي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته، فلا بد في الخطابة من مشافهة، وإلا كانت كتابة أو شعرًا مدونًا، ولا بد من جمهور يستمع وإلا كان الكلام حديثًا أو وصية، ولا بد من الإقناع، وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين، ويؤيده بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده. ثم لا بد من الاستمالة، والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها، ويقبض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف شاء سارًّا أو محزنًا مضحكًا أو مبكيًا، داعيًا إلى الثورة أو إلى السكينة"[٧] .

أما خطبة الجمعة فقد عرفها الإمام الكاساني بقوله:" خطبة الجمعة اسم لما يشتمل على تحميد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، والدعاء للمسلمين، والوعظ والتذكير لهم "[٨] .

ثالثاً: أهمية خطبة الجمعة

لأهمية خطبة الجمعة فقد أنزل الله تعالى سورة كاملة تسمى بسورة الجمعة، وقد أمر الله تعالى عبادة بالسعي إليها، قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾ [الجمعة: ٩: ١٠]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها،

---

(٧) فن الخطابة، د أحمد الحوفي ص١٨.

(٨) بدائع الصنائع١، للكاساني / ٢٦٢

وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهي عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ ﴾أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من آكد الفروض.

﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ لطلب المكاسب والتجارات ولما كان الاشتغال في التجارة، مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ أي في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح"[٩].

وعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – « أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فأنزلت هذه الآية التي في الخطبة : ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ ﴾ [الجمعة: ١١][١٠].

([٩]) تفسير السعدي صـ ٨٦٣.

([١٠]) صحيح مسلم، برقم(١٤٢٨).

وعنه أيضا قال: بينما النبي – صلى الله عليه وسلم – يخطب يوم الجمعة؛ وقدمت عِيرٌ إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :" والذي نفسي بيدِه لوتتابعتُم حتَّى لا يبقى منكم أحدٌ؛ لسال بكُمُ الوادي ناراً " فنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ [الجمعة: ١١]، وقال: في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أبو بكر و عمر"[١١].

ولأهمية خطبة الجمعة فقد رغب الإسلام بالاستماع لها ، نهي عن الكلام والعبث أثنائها، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » [١٢] .

([١١]) مسند أبي يعلى (٣/ ٤٦٨)، برقم(١٩٧٩)، وهو في السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم (٣١٤٧).

([١٢]) صحيح البخاري ٢/ ٣٩٦

رابعاً: حكم خطبة الجمعة

اختلف أهل العلم في حكم خطبة الجمعة هل هي شرط لصحة الجمعة أم لا ؟ على قولين:

القول الأول: إن الخطبة شرط لصحة الجمعة ، فلابد أن تتقدمها، وهذا مذهب جماهير أهل العلم، وذهب إلى هذا لقول الإمام أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد وبه قال عطاء، والنخعي، وقتادة، والثوري، وإسحاق، وأبو ثور، قال القاضي عياض : وهو قول كافة العلماء(١٣).

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة ، منها: قوله وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ ﴾ [الجمعة : ٩]، وذكر الله في هذه الآية هو خطبة الجمعة على الراجح من أقوال أهل العلم، وقد أمر الله تعالى بالسعي إليها، وهذا الأمر يدل على الوجوب (١٤).

وفي هذه الآية أمر الله تعالى بترك البيع عند النداء لخطبة الجمعة، أي أن البيع يحرم في ذلك الوقت، فتحريمها للبيع دليل على وجوبها؛ لأن المستحب لا يحرم المباح (١٥) .

---

(١٣) المجموع، للنووي (٤/ ٣٨٣)، المغني، لابن قدامة (٣/ ١٧٠) بدائع الصنائع، للكاساني (١٩٥/٢)، مصنف عبدالرزاق (٣/ ٢٢٢) .

(١٤) تفسير الطبري ٢٨ / ٦٥، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ١٠٧، وبدائع الصنائع، للكاساني، (١٩٥/٢) ، والمغني، لابن قدامة (٣/ ١٧١)، ونيل الأوطان، للشوكاني، (٢٧٨/٣).

(١٥) أحكام القرآن، لابن العربي ٤ / ١٨٠٥ .

ومن الأدلة على هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ [الجمعة: ١١]، وجه الدلالة في هذه الآية: أن الله – تعالى – ذم المنفضين إلى التجارة وتركهم خطبة الجمعة، والواجب هو الذي يذم تاركه شرعا [١٦] .

ومن أدلة السنة على هذا القول ما رواه عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : « كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يخطب قائما، ثم يقعد، ثم يقوم، كما تفعلون الآن » [١٧] .

وعن مالك بن الحويرث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »[١٨] .

قال أهل العلم : إن النبي – صلى الله عليه وسلم – ما صلى الجمعة في عمره بغير خطبة [١٩] ، وقد أمرنا بالصلاة كما كان يصلي ، ولو جازت الجمعة بغير خطبة لفعله ولو مرة تعليما للجواز [٢٠] .

([١٦]) أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ١٨١٠ ، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٨ / ١١٤ .

([١٧]) صحيح مسلم، برقم (٨٦١) .

([١٨]) صحيح البخاري، في كتاب الأذان – باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة . ١ / ١٥٥ .

([١٩]) المبسوط، للسرخسي ٢ / ٢٤ ، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي ١ / ٢١٩ ، والإشراف على مذاهب العلماء، لابن المنذر ١ / ١٣١ ، و الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للنفراوي ١ / ٣٠٦ ، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٨ / ١١٤ ، والمغني، لابن قدامة ٣ / ١٧١ ، وشرح الزركشي على الخرقي ٢ / ١٧٣ ، وكشاف القناع عن متن الإقناع، للبهوتي ٢ / ٣١ .

([٢٠]) المبسوط، للسرخسي ٢/ ٤٢ .

وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : " الخطبة موضع الركعتين ، من فاتته الخطبة صلى أربعا " [٢١] ، وفي رواية : " إنما جُعِلَت الخطبة مكان الركعتين فإن لم يدرك الخطبة فليصل أربعا " [٢٢] .

القول الثاني: قالوا: إن الخطبة ليست شرطاً ، فلو لم يتقدم الصلاة خطبة فالصلاة صحيحة وتعد جمعة .

وهذا القول قال به الحسن البصري ، والجويني، وهو مروي عن الإمام مالك ، وبه قال ابن الماجشون من المالكية، وذكر القاضي عياض أنه رواية عن مالك أيضاً [٢٣]، واستدل أصحاب القول، بأن الجمعة تصح ممن لم يحضر الخطبة، ولو كانت شرطا يجب الإتيان به لم يصح إدراك الجمعة إلا بها [٢٤] .

وقد رد الإمام الماوردي على هذا الدليل بقوله :" وهذا خطأ، ويوضحه إجماع من قبل الحسن وبعده "، ثم ناقشه بأنه غير صحيح؛ لأن الركعتين واجبتان بالإجماع، ثم إنه لا يتعلق إدراك الجمعة بها ، فلو أدرك ركعة صحت له بالجمعة ، فكذلك الخطبة [٢٥] .

([٢١]) مصنف عبد الرزاق، كتاب الجمعة – باب من فاتته الخطبة ٣ / ٢٣٧ ، الأثر رقم (٥٤٨٥) ، والمحلى لابن حزم ٥ / ٥٨ .

([٢٢]) مصنف ابن أبي شيبة ،كتاب الصلوات – باب الرجل تفوتة الخطبة ٢ / ١٢٨ .

([٢٣]) المغني، ابن قدامة ٣ / ١٧١ ، الحاوي، للماوردي ٣ / ٤٤، المجموع النووي ٤ / ٥١٤ ، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٨ / ١١٤ ، والمحلى، لابن حزم ٥ / ٩٥

([٢٤]) الحاوي، للماوردي ٣ / ٤٤ .

([٢٥]) المرجع السابق ٣ / ٤٤ .

والذي يظهر أن القول الراجح في هذه المسألة هو قول جماهير أهل العلم، وهو القول الأول القائل بأن الخطبة شرط لصحة الجمعة ، لقوة أدلته، بل نقل بعضهم شبه إجماع عليه كما تقدم عن صاحب الحاوي والله أعلم.

خامساً: هدي النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الجمعة

يحسن بنا في هذا المقام أن نذكر هدي النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الجمعة؛ حتى يكون الخطيب على بينة من أمره في هذا الجانب، وخير من تكلم في ذلك العلامة ابن القيم في زاد المعاد، حيث قال رحمه الله:" قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ويقول بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يقول:" أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعلي" [٢٦]، وفي لفظ كانت خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة يحمد الله ويثني عليه ثم يقول على أثر ذلك وقد علا صوته فذكره . وفي لفظ يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وخير الحديث كتاب الله".

وكان يقصر الخطبة ويطيل الصلاة ويكثر الذكر ويقصد الكلمات الجوامع وكان يقول إِنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ

([٢٦]) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، برقم (١٤٣٥)

وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا"[٢٧]، وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين، ونهى المتخطي رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس . وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض أو السؤال من أحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها .

وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة ثم يعود فيتمها كما نزل لأخذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فأخذهما ثم رقي بهما المنبر فأتم خطبته وكان يدعو الرجل في خطبته تعال يا فلان اجلس يا فلان صل يا فلان . وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها .

وكان يشير بأصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله تعالى ودعائه. وكان يستسقي بهم إذا قحط المطر في خطبته وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس فإذا اجتمعوا خرج إليهم وحده من غير شاويش يصيح بين يديه ولا لبس طيلسانا ولا طرحة ولا سوادا فإذا دخل المسجد سلم عليهم فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ولم يدع مستقبل القبلة ثم يجلس ويأخذ بلال في الأذان فإذا فرغ منه قام النبي صلى الله عليه وسلم فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة لا بإيراد خبر ولا غيره.

ولم يكن يأخذ بيده سيفا ولا غيره وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر وكان في الحرب يعتمد على قوس وفي الجمعة كان يعتمد على

([٢٧]) صحيح مسلم، برقم (٨٦٩).

السيف دائما وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف فمن فرط جهله فإنه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولا قوس ولا غيره ولا قبل اتخاذه أنه أخذ بيده سيفا البتة وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس .

وكان منبره ثلاث درجات وكان قبل اتخاذه يخطب إلى جذع يستند إليه فلما تحول إلى المنبر حن الجذع حنينا سمعه أهل المسجد فنزل إليه صلى الله عليه وسلم وضمه قال أنس : حن لما فقد ما كان يسمع من الوحي وفقده التصاق النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يوضع المنبر في وسط المسجد وإنما وضع في جانبه الغربي قريبا من الحائط وكان بينه وبين الحائط قدر ممر الشاة . وكان إذا جلس عليه النبي صلى الله عليه وسلم في غير الجمعة أو خطب قائما في الجمعة وكان وجهه صلى الله عليه وسلم قبلهم في وقت الخطبة[٢٨].

([٢٨]) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ١/ ٤١١، باختصار.

المبحث الثاني: الخِطَابَةُ في العصر الجَاهلي وفي صدر الإسلام

لم يعرف الناس الخطابة في عصرنا الحديث، بل قد عرفوها منذ القدم، وفي هذا المبحث سوف نتناول الحديث عن الخطابة في عصرين مهمين ازدهرة فيهما الخطابة، وهذين العصرين هما العصر الجاهلي الذي سبق ظهور الإسلام، وعصر صدر الإسلام الذي بعث الله فيه محمدً صلى الله عليه وسلم، ووسف يكون الحديث عن ذلك على النحو الآتي:

أولاً: الخطابة في العصر الجاهلي

الخطابة قديمة العهد مع بني الإنسان، وقد ظهرت الخطابة مع ظهور الإنسان على ظهر الأرض، إذ لا غنى للإنسان عن التعبير لغيره عما يدور في نفسه من معانٍ وأفكار، وعن إقناعه بصدق مقاله وسداد رأيه.

وقد اهتم العرب في العصر الجاهلي بالخطابة، وقد كانت الخطابة عندهم صفةً فطريةً في طبيعتهم، وكانوا يستخدمون الخطابة للدفاع عن كرامتهم وأعراضهم بل وعن أموالهم.

وبالرغم من أنّ العرب في العصر الاهلي قد اعتنوا بالشعر بشكل كبير، إلّا أنّ اهتمامهم بالخطابة كان ملحوظا، فقد أصبح لكلّ قبيلةٍ خطيب، وكثر استخدام الخطابة في الحثّ على القتال والحروب، وفي الإصلاح بين الناس، كما كانوا يستخدمونها عند قدومهم على الملوك والأمراء بقصد حصولهم على العطايا.

قال الدكتور أحمد زكي صفوت:" وخطب العرب في عصور ازدهار اللغة مرآة يتجلى فيها ما حباهم الله من ذلاقة اللسان، وعذوبة البيان، ومعرض يتمثل فيه نتاج قرائحهم، وثمرات ألبابهم، في كثير من مناحي القول، وإنها لتعد –بعد

القرآن الكريم والحديث الشريف- مثالًا ساميًا للبلاغة العربية، ونموذجًا قويمًا يجتذيه المتأدب في تقويم قلمه المعوج، وشحذ لسانه الكليل، وهي فوق ذلك معين فياض يستقي منه مؤرخ الأدب العربي ما يعن له من آراء، ومادة عزيزة يستنبط منها ما يقفه عليه البحث من فكر"[٢٩].

من أشهر الخطباء في العصر الجاهلي

اشتهر في الجاهلية عدد من الخطباء البلغاء، ومن هؤلاء الخطباء قس بن ساعدة فقد كان من الحنفاء الذين يعبدون الله تعالى وحده وتركوا عبادة الأصنام، قال أبو شهبة:" قُس بن ساعدة الإيادي، كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم" [٣٠] .

وقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال :" لما قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يعرف قس بن ساعدة الإيادي ؟، قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله، قال: فما فعل؟، قالوا: مات يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله قس بن ساعدة ما أنساه، وكأني أنظر إليه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أورق أحمر وهو يخطب الناس، ويتكلم بكلام عليه حلاوة وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واستمعوا واحفظوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، بحار تزخر،

---

(٢٩) جمهرة خطب العرب، د/أحمد زكي صفوت ١/ ٣.

(٣٠) السيرة النبوية لأبي شهبة (٨١/١).

ونجوم تزهر، ومطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وضوء وظلام، وبر وآثام، لباس ومركب، ومطعم ومشرب، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، أقسم قس قسما حقا، لئن كان في الأرض رضا ليكون سخطا ،إن لله دينا هو أحب الأديان إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام هناك فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا ؟ ثم قال: أقسم قس قسما برا لا إثم فيه ما لله على الأرض دين هو أحب إليه من دين أظلكم إبانه، وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن أدركه ففارقه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يرحم الله قس بن ساعدة، لأرجو أن يأتي يوم القيامة أمة وحده"(٣١).

ومن أشهر خطباء العصر الجاهلي أكثم بن صيفي، فقد خطب معزيًا عمرو ابن هند في وفاة أخيه فقال له:" أيها الملك، إنّ أهلَ هذه الدنيا سفر، لا يحلون عقد الترحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، ورحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك، إنّ الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة وشاهد ؛ فجعك بنفسه، وأبْقَى لك وعليك حُكْمَه، واليومُ غَنِيمَة، وصديق أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبته، ومتسرع عنك رحلته. وغدًا لا تدري من أهله، وسيأتيك إنْ وُجِد، فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مَضتْ

(٣١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ١/ ٦٦، والبيان والتبيين، للجاحظ، ١/ ١٦٨، والحديث بهذا الوجه غريب جدا.

لنا أصولٌ نحنُ فُروعُها، فما بقاء الفروع بعد أصولها، واعلم أنه أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله"[٣٢].

ثانياً: الخطابة في عصر صدر الإسلام

اعتنى الاسلام بالخطابة عناية كبيرة؛ حيث أصبحت الخطابة في ظل الإسلام تستخدم كوسيلة من وسائل الدعوة الله تعالى، والإيمان به والتمسّك بدينه وشرعه.

ولأهمية الخطابة فقد كان لأنبياء الله ورسله –عليهم الصلاة والسلام– الحظ الأوفى والمقام الأعلى في هذا المقام، فكل واحد منهم كان يقوم خطيبًا في قومه، داعية لهم إلى توحيد الله تعالى وطاعته، ويدلونهم على الله تعالى ويبينوا لهم ما يقربهم من خالقهم ويوصلهم إلى طاعته، ويحذرونهم من معصيته والبعد عنه.

وقد جعل الله تعالى أنبياء ورسله في قمة الفصاحة والبلاغة في خطبهم ومواعظهم، قال تعالى عن جميع أنبيائه ورسله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾ [إبراهيم: ٤]، قال سيد قطب في ظلاله عند هذه الآية:" هذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة .

([٣٢]) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، ٢/ ٣٥.

وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بلسان قومه وإن كان رسولاً إلى الناس كافة لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر . وعمره صلى الله عليه وسلم محدود . وقد أمر ليدعو قومه أولاً حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام. ومن ثم تكون مهداً يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض. والذي حدث بالفعل وهو من تقدير الله العليم الخبير أن اختير الرسول إلى جوار ربه عند انتهاء الإسلام إلى آخر حدود الجزيرة ، وبعث جيش أسامة إلى أطراف الجزيرة ، الذي توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يتحرك بعد.

وحقيقة إن الرسول قد بعث برسائله إلى خارج الجزيرة يدعو إلى الإسلام ، تصديقاً لرسالته إلى الناس كافة، ولكن الذي قدره الله له، والذي يتفق مع طبيعة العمر البشري المحدود، أن يبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم قومه بلسانهم، وأن تتم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حملة هذه الرسالة إلى الأصقاع، وقد كان، فلا تعارض بين رسالته للناس كافة، ورسالته بلسان قومه ، في تقدير الله، وفي واقع الحياة .

إذ تنتهي مهمة الرسول كل رسول عند البيان . أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال ، فلا قدرة له عليه ، وليس خاضعاً لرغبته، إنما هو من شأن الله . وضع له سنة ارتضتها مشيئته المطلقة . فمن سار على درب الضلال ضل ، ومن سار على درب الهدى وصل . . هذا وذلك يتبع مشيئة الله ، التي شرعت سنته في الحياة .

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، القادر على تصريف الناس والحياة ، يصرفهم بحكمة وتقدير فليست الأمور متروكة جزافاً بلا توجيه ولا تدبير "[٣٣] .

قال موسى لربه:﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص: ٣٤]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية:" وذلك أن موسى، عليه السلام، كان في لسانه لثغة، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خُيّر بينها وبين التمرة أو الدرّة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير؛ ولهذا قال:﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾[طه : ٢٧ –٣٢] أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد. ولهذا قال: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ ، أي: وزيرًا ومعينًا ومقويًّا لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل؛ لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد؛ ولهذا قال: إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ "[٣٤] .

وقال سبحانه وتعالى عن نبيه داود عليه السلام:﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ٢٠]، قال الشيخ السعدي في تفسيره عن هذه

([٣٣]) في ظلال القرآن ، لسيد قطب٤/ ٣٨٨، باختصار يسير.

([٣٤]) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٦.

الآية:" ذكر الله تعالى منته على نبيه داوود بالملك العظيم فقال: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة الْعَدَد والْعُدَدِ التي بها قوَّى اللّه ملكه، ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: النبوة والعلم العظيم، ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ أي: الخصومات بين الناس"[٣٥] .

وقد كان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم في قمة الفصاحة والبلاغة أثناء خطبه ومواعظه، وقد ظل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثلاثة عشر عامًا قبل الهجرة يدعو إلى الله تعالى كل من يلقاه من قومه من أهل قريش، وكُلّ من يلقاه من غيرهم في الأسواق وكان يتلو عليهم آيات القرآن الكريم.

وكان يخطب في الناس في مجامعهم يدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لعلهم يقلعوا عن شركهم ويعودوا إلى ربهم، وفي هذا المقام سوف نذكر بعضاً من خطبه صلى الله عليه وسلم، ومن خطب خلفائه الراشدين.

([٣٥]) تفسير السعدي صـ ٧١١.

١ـ من خطب النبي صلى الله عليه وسلم

حفظت لنا دواوين السنة وكتب السيرة كثيراً من خطب النبي صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي – لبطون قريش – حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تبا لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت:﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ [المسد: ١ – ٢][٣٦] .

وعن أبي هريرة قال لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جمع رسول الله صلى الله عليه و سلم قريشا فخص وعم فقال:" يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا،

([٣٦]) صحيح البخاري– كتاب التفسير، برقم(٤٧٧٠)

يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا إن لك رحما سأبلها ببلالها"[٣٧].

والمتأمل في هذه الخطبة يجد أن النبي صلى الله عليه وسلم توجه بها إلى قومه وعشيرته، قال الدكتور عماد الدين خليل معلقاً على ذلك:" "من الطبيعي أن يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش؛ لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن الكريم اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية"[٣٨] .

وفي حجة الوداع خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبتين الأولى في يوم عرفة، فعن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال:" إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة وإن

([٣٧]) صحيح مسلم، برقم ، كتاب الإيمان، برقم (٣٠٣).

([٣٨]) دراسات في السيرة، عماد الدين خليل، ص٦٦.

أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات"(٣٩).

كما كانت له خطبة أخرى في حجة الوداع، وذلك في يوم النحر، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر قال:" أتدرون أي يوم هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس يوم النحر؟ قلنا بلى قال أي شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذو الحجة؟ قلنا بلى، قال: أي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليست بالبلدة الحرام قلنا بلى قال:" فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم ألا هل بلغت قالوا نعم قال اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"(٤٠) .

(٣٩) صحيح مسلم، كتاب الحج، برقم(٢١٣٧).

(٤٠) صحيح البخاري، برقم(١٦٢٥).

والمتأمل في هاتين الخطبتين للنبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كرر بعض المعاني والمفاهيم التي يحتاجها الناس؛ وذلك لحكم وأهداف يريدها، وقد أشار إلى ذلك استاذنا العلامة الدكتور عبد الكريم زيدان:" فعلى الدعاة أن يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فيكرروا خطبهم ويكرروا بعض معانيها التي يرون حاجة لتكرارها، حتى يستوعبها السامعون ويحفظوها؛ لأن القصد من خطب الخطيب إفادة السامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصل –أو لا تتم– إلا بتكرار الخطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكررها الداعية، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديد في خطبه ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معان معينة في أذهان السامعين.

إن الداعية همه أن يفيد السامعين، وليس همه أن يظهر براعته في الخطب، وفي تنوع معانيها، دون نظر ولا اعتبار إلى ما يحتاجه السامعون، ودون اعتبار لفهمهم هذه المعاني واستيعابهم لها. وفي قوله صلى اله عليه وسلم" فليبلغ الشاهدُ الغائبَ توجيه نبوي كريم لكي تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس؛ فهذا من باب التعاون على الخير، ولأن الغائب قد يكون أوعى للعلم وأكثر فهمًا له من الحاضر الذي سمع، وعلى الدعاة والعلماء عندما يلقون درسا أو محاضرة لإخوانهم أو لعامة الناس فمن المستحسن أن يقولوا للحاضرين: فليبلغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه.[٤١].

([٤١]) المستفاد من قصص القرآن د/ عبد الكريم زيدان، ٥١٧/٢، بتصرف يسير.

٢ـ من خطب الخلفاء الراشدين

الخلفاء الراشدون هم أفصح الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كانت لهم الكثير من الخطب في مناسبات مختلفة، وفي هذا المقام سوف نذكر بعضاً من خطبهم، بحسب ما تقتضيه الحاجة ويفي بالغرض.

- من خطب أبي بكر الصديق

أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– أول من أسلم من الرجال، وقد كان كثير الصحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد استمع إلى كثيرٍ من خطب النبي صلى الله عليه وسلم، فتأثر بذلك تأثراً بالغاً، فإذا بلسانه يتدفق تدفق السيل بالخطب الفصيحة، قال الاستاذ عباس العقاد عن كلام الصديق وخطبه:" أما كلامه فهو من أرجح ما قيل في موازين الخلق والحكمة، وله من مواقع الكلم أمثلة نادرة تدل الواحدة منها على ملكة صاحبها فيغني القليل منها عن الكثير، كما تغني السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل، فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله "احرص على الموت تهب لك الحياة" أو قوله:" أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة. الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله"، فهي كلمات تتسم بالقصد والسداد، كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير، وتنبئ عن المعدن الذي نجمت منه، فتغني عن علامات التثقيف التي يستكثر منها المستكثرون؛ لأن هذا الفهم الأصيل هو اللباب المقصود من التثقيف وكانت له رضي لله عنه لباقة في الخطاب إلى جانب البلاغة في الكلام [٤٢].

([٤٢]) عبقرية الصديق، لعباس للعقاد صـ ١٣٩.

وقد رويت عنه خطبا كثيرة، تدل دلالة واضحة على فصاحته وبلاغته، فلما قبض الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، اضطرب الناس وماجوا، وما صدق بعضهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات، ومنهم عمر رضي الله عنه، ولما بلغ الخبر أبا بكر الصديق أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح، حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلّم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُغشّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي عليك فقد متها [٤٣].

وخرج أبو بكر وعمر يتكلم فقال: اجلس يا عمر، وهو ماضي في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في الناس خطيباً بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد: فإن من كان يعبد محمد فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٤]. فنشج الناس يبكون [٤٤]، قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمت أن رسول الله قد مات [٤٥].

([٤٣]) صحيح البخاري، كتاب المغازي، برقم (٤٤٥٢).

([٤٤]) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، برقم(٣٦٦٨) .

([٤٥]) صحيح البخاري، كتاب المغازي، برقم(٤٤٥٤).

وفي رواية عند البيهقي أن أبا بكر قال: إن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة وإن الله ناصر من نصره، ومعز دينه، وإن كتاب الله بين اظهرنا، وهو النور والشفاء وبه هدا الله محمد صلى الله عليه وسلم وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نبالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدنَّ من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله فلا يبغين أحد إلا على نفسه [٤٦].

وبهذه الخطبة القصيرة، والتي استشهد فيها الصديق رضي الله عنه بالقرآن الكريم، أخرج الصحابة رضي الله عنهم من ذهولهم وحيرتهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجعوا بهذه الخطبة إلى الفهم الصحيح لطبيعة هذا الدين، فالله تعالى هو الحي وحده الذي لا يموت، وهو وحده الذي يستحق العبادة، وأن دين الله تعالى باق بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن بايع الصحابة رضي الله عنهم أبابكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة قام فيهم خطيباً فقال:" أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ إلا عمّهم الله بالبلاء،

([٤٦]) دلائل النبوة، للبيهقي (٢١٨/٧).

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله "[٤٧].

قال الحميدي معلقاً على خطبة أبي بكر هذه:" وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الاسلامية على إيجازها، وقد قرر الصديق فيها قواعد العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم وركز على أن طاعة ولي الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد في سبيل الله؛ لأهميته في إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة؛ لأهمية ذلك في حماية المجتمع من الانهيار والفساد [٤٨].

والمتأمل في خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه يجد أنه يتخير ألفاظ خطبته بعناية، وأنه يتكلم بكلام فصيح جزل بعيد عن السجع المتكلف، وأنه يستمد مادة خطبته من كلام الله تعالى ومن كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ومما يدل على ذلك قوله في خطبة له:" "إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟ أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا رميماً، قد تولت عليهم العالات.

وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم، وصاروا كل شئ، إلا أن الله عزوجل قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا

([٤٧]) البداية والنهاية، لابن كثير ٦/ ٣٠٦ وإسناده صحيح.

([٤٨]) التاريخ الاسلامي، للحميدي (٢٨/٩).

والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبعثنا خلفا بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن انحدرنا كنا مثلهم، أين الوضاءة الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟ صاروا ترابا، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم، أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم: ٩٨]؟ أين من تعرفون من آبائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم فردوا على ما قدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقاوة أو السعادة بعد الموت، ألا إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف به عنه سوءاً، إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته أما آن لأحدكم أن تحسر عنه النار ولا تبعد عنه الجنة"[٤٩].

([٤٩]) البداية والنهاية، لابن كثير (٦/٣٠٥).

- **من خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه**

عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الخليفة الثاني للمسلمين بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد كان فصيح اللسان، فلما تولى أمر الخلافة قام في الناس خطيباً وبين لهم في خطبه سياسته التي سوف يسير عليها في الحكم، فقال رضي الله عنه:" إن الله عز وجل قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده، كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمرني به.

وإني أمرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئا إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم: إن عمر تغير منذ ولي، أعقل الحق من نفسي، وأتقدم وأبين لكم أمري، فأيما رجل كانت له حاجة، أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق، فليؤذنِّي، فإنما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم، وحرماتكم وأعراقكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إلى، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إليَّ صلاحُكم، عزيز عليَّ عَنَتُكم، وأنتم أناسٌ عامتكم حضر في بلاد الله، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع، إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله –عز وجل– قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع على ما يحضرني بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد منه إلا

بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله[٥٠].

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية، فقال:" إن رسول الله قام في مثل مقامي هذا فقال: أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيءُ قوم يحلف أحدهم على اليمين قبل أن يُسْتَحْلَف عليها، ويشهد على الشهادة قبل أن يُستشهد، فمن أحب منكم أن ينال بُحْبُوحة الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان، ومن كان منكم تسرُّه حسنته وتسوؤه سيئته فهو مؤمن[٥١].

ودعا ذات مرة في خطبته دعاً بليغاً يدل على فصاحته وبلاغته، حيث قال:" اللهم إني غليظ فلَيِّنِّي لأهل طاعتك، بموافقة الحق؛ ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك، وأهل النفاق، من غير ظلم مني، ولا اعتداء عليهم. اللهم إني شحيح، فسخِّنِي في نوائب المعروف، قصدًا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمحة، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة، اللهم ارزقني حفض الجناح، ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان، فألهمني ذكرك على كل حال، وذكر الموت في كل حين، اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها، والقوة عليها، بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك، والحياء منك، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني، والمحاسبة لنفس،

---

(٥٠) تاريخ الطبري ٤. / ٢١٥.

(٥١) مسند أحمد برقم(١٧٧) قال شعيب الأرناؤوط: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين

وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجبائبه، والعمل بذلك ما يقيت، إنك على كل شيء قدير[٥٢].

- **من خطب عثمان بن عفان رضي الله عنه**

عثمان بن عفان رضي الله عنه هو الخليفة الثالث للمسلمين، وبعد توليه الخلافة، خطب في الناس خطبة قصيرة بليغة، بين فيها سياسته في حكم المسلمين، حيث قال رضي الله عنه:" أما بعد، فإني قد حملت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه –صلى الله عليه وسلم– ثلاثًا: اتِّبَاع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسنتهم، وسنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم.

ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها؛ فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها"[٥٣] .

المتأمل في خطبة عثمان رضي الله عنه بعد توليه الخلافة يجد أنها قصيرة إذا ما قورنت بخطبتي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ورغم قصرها إلا أنه بَيَّن فيها نظام الحكم الذي سوف يسير عليه في خلافته، وهي أنه متبع سياسة من سبقه من الخلفاء الراشدين، وهذا الاتباع ليس معناه الجمود؛ لأن الدولة الإسلامية قد توسعت رقعتها الجغرافية، وكثير من الناس قد دخلوا في دين الله

([٥٢]) العقد الفريد، لابن عبد ربه ٤/ ٦٥.

([٥٣]) تاريخ الطبري ٤ / ٤٢٢.

أفواجا، وهذا يحتم على أن يجتهد الاجتهادات المناسبة للمشكلات المتجددة، لكنه جعل اجتهاداته لا تخرج عن اجتهادات من سبقه من الخلفاء الراشدين.

وخطب يوماً في الناس يحثهم على الاستعداد ليوم المعاد، قال الحسن البصري -رحمه الله-: خطب عثمان بن عفان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله فإن تقوى الله غُنْم، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورا لظلمة القبر، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى، وقد كان بصيرا، وقد يكفي الحكيم جوامع الكلام، والأصم ينادي من مكان بعيد، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئا، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده [٥٤].

وفي خطبة أخرى له خطب في الناس محذراً لهم من خداع الدنيا، حيث قال لهم:" إنكم في دار قلة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صبحتم أو أمسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. اعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا؛ فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذي أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا، ألم تلفظهم! ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة؛ فإن الله قد ضرب لها مثلا، وللذي هو خير، فقال عز وجل: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ

(٥٤) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النورين، صـ١٠٧، لمجدي فتحي السيد.

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥ – ٤٦]"[٥٥].

- **من خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه**

المتأمل في خطب أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه يجد أنه كان كارهاً لأمر الخلافة، وخاصة أنه جاء بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وما رافق ذلك من انقسام بين الصحابة رضي الله عنهم، ولما رأى اصرار الصحابة على اختياره قبل ذلك، فقد خطب بعد توله الخلافة قائلا:" الحمد لله على كل أمر وحال في الغدو والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ابتعثه رحمة للعباد، وحياة للبلاد، حين امتلأت الأرض فتنة واضطرب حيلها وعبد الشيطان في أكنافها، واشتمل عدو الله إبليس على عقائد أهلها، فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي أطفأ الله به نيرانها، وأخمد به شرارها، ونزع به أوتادها وأقام به ميلها إمام الهدى والنبي المصطفي وآله وسلم فلقد صدع بما أمر به، وبلغ رسالات ربه فأصلح الله به ذات البين وآمن به السبل، وحقن به الدماء وألف به بين ذوي الضغائن الواغرة في الصدور، وحتى أتاه اليقين ثم قبضه الله إليه حميدا .

ثم استخلف الناس أبا بكر فلم يأل جهده، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يأل جهده، ثم استخلف الناس عثمان فنال منكم ونلتم منه؛ حتى إذا كان من أمره ما كان اتيتموني لتبايعوني فقلت: لا حاجة لي في ذلك ودخلت منزلي

([٥٥]) تاريخ الطبري ٤. / ٢٤٣.

فاستخرجتموني فقبضت يدي، فبسطتموها وتداككتم علي حتى ظننت أنكم قاتلي وأن بعضكم قاتل بعض فبايعتموني، وأنا غير مسرور بذلك ولا جذل وقد علم الله سبحانه أني كنت كارها للحكومة بين أمة محمد، حتى اجتمع على ملؤكم وبايعوني"[٥٦].

وقد خطب في الناس ذات مرة قائلاً:" أما بعد فإن لي عليكم حقا، وإن لكم علي حقا، فأما حقكم علي فالنصيحة لكم ما صبحتكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيما لا تجهلوا، وتأديبكم كي تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء للبيعة، والنصح لي في الغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم، فإن يرد الله بكم خيرا انتزهتم عما أكره، وترجعوا إلى ما أحب، تنالوا ما تطلبون، وتدركوا ما تأملون"[٥٧] .

والمتأمل في هذه الخطبة يجد أن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ركز فيها على بيان حقوق الراعي والراعية، فقد جعل علي رضي الله عنه حق الرعية عليه النصيحة لهم وتأديبهم وتعليمهم، وجعل من حقه عليه السمع والطاعة بالمعروف والوفاء بالبيعة، وهكذا انصهرت حقوق الراعي مع حقوق الرعية.

([٥٦]) جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت ١/ ٣٠٣.

([٥٧]) تاريخ الطبري ٥. /٩٠.

المبحث الثالث: عناصر الخطبة ومكوناتها

أي خطبة ينبغي أن يقوم على ثلاثة عناصر مهمة، وهذه العناصر هي المقدمة، المحتوى والخاتمة، سوف نتناول الحديث العناصر على النحو التالي:

أولاً: مقدمة الخطبة

مقدمة الخطبة مهمة جداً؛ لأنها أول ما يقرع سمع الجمهور من الكلام، ومن براعة الخطيب حسن استهلاله لمقدمة خطبته، فيأتي فيها بعبارات توحي للسامعين بموضوع خطبته، وهذا مما يشد انتباه الناس إليه ويهيئ نفوسهم لخطبته.

وقد كان عليه الصلاة والسلام يفتتح خطبه بالحمد، وبخطبة الحاجة، وهي سنة نبوية، بل كانت براعة استهلاله بهذه المقدمة، سبباً في إسلام الصحابي ضماد الأزدي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ضماداً قدم مكة وكان من أزد شنوءة وكان يرقي من الجن، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون فقال: لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح (يعني الجن) وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد .

قال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما

سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر[٥٨]، قال: هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وعلى قومك" ؟ قال: وعلى قومي" [٥٩].

وقد يقول بعض الخطباء: كيف أفتتح خطبتي؟ وهل هناك من مقترحات لافتتاحيات مناسبة لخطب ناجحو؟ وفي هذا المقام سنذكر بعض المقترحات التي نقترح على الخطيب أن يستفتح بها موضوع خطبته.

١. افتتاح الخطبة بقصة

ومن المقدمات المميزة أن يبدأ الخطيب خطبته بقصة لها علاقة بموضوع خطبته، فإنها تشد إليه انتباه جمهور المصلين؛ لأنهم يحبون الاستماع إلى القصص ومتابعة أحداثها، وهذا الأسلوب استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء

([٥٨]) **ناعوس البحر** وَهُوَ وسَطُه ولُجَّته، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٨١).

([٥٩]) صحيح مسلم برقم (١٤٣٦).

وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج.

قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الآخر:" اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الثالث:" اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون"[٦٠] فهذه القصة يمكن جعلها كمقدمة لموضوع أثر العمل الصالح في تفريج الكروب، وقد استخدمت هذا الأسلوب في كثير من خطبي فوجدته مفيداً جداً في شد انتباه جمهور المصلين.

([٦٠]) صحيح البخاري، برقم(٢١١١)

٢ ـ افتتاح الخطبة بسؤال يحرك الأذهان

من الافتتاحيات المهمة أن يبدأ الخطيب خطبته بسؤال يوجهه لجمهوره، والسنة النبوية مليئة بالأمثلة على هذه الافتتاحيات، فعن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال:" ذكرك أخاك بما يكره، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال:" إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته [٦١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال:" إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار [٦٢].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي، فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله قال:" هي النخلة"[٦٣].

([٦١]) صحيح مسلم، برقم (٢٥٨٩).

([٦٢]) رواه مسلم (٢٥٨١).

([٦٣]) صحيح البخاري، برقم (٥٩) .

إن استخدام اسلوب السؤال في افتتاح خطبة الجمعة، من أضمن الطرق والأساليب لفتح أذهان جمهور المستمعين والدخول إلى قلوبهم وعقولهم.

٣ـ افتتاح الخطبة بشيء مثير

جبل الله الناس على الفضول وحب الاستطلاع على الأشياء المثيرة، ومعرفة ما أخفي عنهم، ولذا فإن استخدام الخطيب لشيءٍ مثيرٍ مع جمهور المصلين من أهم وسائل إثارة انتباههم إليه وإلى ما سيقوله في خطبته .

وقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الْمُخَيَّرُ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ [٦٤]

٤ ـ افتتاح الخطبة بمثال مضروب

المستمع العادي لخطبة الجمعة يصعب عليه التركيز مع عبارات الخطيب الطويلة المجردة من الأمثلة، ويستمتع بالخطبة المفتتحة بمثال مضروب؛ لأن المثل يثير اهتمام الجمهور، ويشد انتباههم، والسنة النبوية مليئة بالافتتاحيات التي فيها ضرب الأمثال، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا

([٦٤]) صحيح البخاري، برقم (٤٦٦) و صحيح مسلم، برقم (٢٣٨٢).

خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"[٦٥].

وعن أبي بكر رضي الله عليه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا لا يبقى من درنه شيء، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا [٦٦].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة [٦٧]

٥. استعراض عناصر الخطبة في المقدمة

من المقدمات الناجحة أن يذكر الخطيب لمستمعيه عناصر الخطبة التي سيلقيها عليهم، وهو ما يسمى بأسلوب الإجمال قبل التفصيل، وفي القرآن الكريم أمثلة تدل على ذلك كقوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٦ – ١٠٧].

وهذا مثال لمقدمة موضوع عن تربية الأبناء .

([٦٥]) صحيح البخاري، برقم(٢٣١٣).

([٦٦]) صحيح البخاري، برقم (٥٢٨) و صحيح مسلم، برقم (٦٦٧).

([٦٧]) صحيح البخاري، برقم (٢١٠١) و صحيح، برقم مسلم (٢٦٢٨).

فيبدأ الخطيب بعرض مجمل لعناصر خطبته، كأن يقول: " في هذه الخطبة سوف أتحدث إليكم عن موضوع تربية الأبناء، وسوف ينتظم الحديث عن هذا الموضوع في العناصرَ التالية : أولاً: نعمة الأولاد، ثانياً: مسؤولية الآباء عن تربية أولادهم، ثالثا: أسباب الانحراف، رابعا: ما هو العلاج، ولنبدأ بالعنصر الأول وهو نعمة الأولاد، ثم يمر على بقية عناصر الخطبة.

ثانياً: محتوى الخطبة

المراد بمحتوى الخطبة ما بين المقدمة والخاتمة، وهذا الجزء هو المقصود الأعظم الخطبة، ولا بد أن يشمل المحتوى على المعلومات والأفكار التي يريد الخطب إيصالها إلى المستمعين، بأساليب الكلام والعروض المختلفة، كما ينبغي أن يشتمل المحتوى على الأدلة والبراهين التي يستدل بها على موضوع خطبته.

وعلى الخطيب أن يحدد هدفاً لمحتوى خطبته، ويسعى إلى تحقيقه من خلال خطبته، فقد يكون الهدف من الخطبة تحبيب المصلين بعبادة من العبادات، مثال ذلك أن يلقي خطبة عن فضائل الصلاة؛ لتزيد المصلين محبةً للصلاة وتمسكاً بها.

فلخطيب كالطبيب، عليه أن يشخص الداء قبل وصف الدواء، فيتعرف على العلل والأمراض المنتشرة في المجتمع، ثم يذكر لهم الدواء والعلاج المناسب لها.

وعلى الخطيب أن يحسن عرض موضوع خطبته، فالخطيب الجيد يصوغ موضوعه على شكل وحدة موضوعية تتكون من عدة أقسام متدرجة، فبعد أن

ينتهي من الفكرة الأولى ينتقل إلى الفكرة التي تليها بترتيب واضح ومنطقي، وهذا الأمر يعين المستمع على المتابعة، واستيعاب الموضوع.

فليس من المناسب أن يتكلم الخطيب عن نقطة من مظاهر الموضوع، ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن نقطة في العلاج، ثم ينتقل مرة أخرى ليتحدث عن من أسباب الموضوع، ثم يعود إلى الحديث عن المظاهر، فإن هذا يشوش على المستمع، والأصل أن يتحدث عن عناصر كل جزئية حتى ينتهي منها ثم ينتقل إلى عناصر الفقرة الأخرى، وهكذا حتى ينتهي من عرض موضوعه.

وهنا قد يقول قائل: كيف ينتقل الخطيب بين أقسام موضوع خطبته بطريقة سليمة؟

وهنا نقول: إن هناك عدة أساليب للانتقال بين عنصر وآخر من عناصر الخطبة، ومن هذه الأساليب:

١ـ أسلوب الانتقال البلاغي: وذلك بأن يستخدم الخطيب جملة أو عبارة تربط بين عناصر الخطبة، ومثال ذلك أن يتحدث الخطيب عن مظاهر انحراف الأبناء، وبعد أن يذكر مظاهر انحراف الأبناء يقول: ولعلَّ سائل أن يتساءل قائلاً: ما هي أسباب انحراف الأبناء ؟ ثم يبدأ بذكر أسباب انحراف الأبناء، وهكذا يفعل عندما يريد أن ينتقل للحديث عن علاج هذا الانحراف.

٢ـ أسلوب الانتقال الصوتي: وهذا الأسلوب يتم من خلال توقف الخطيب وقفة مناسبة، بعد انتهائه من عرض عناصر الفقرة السابقة؛ ليشعر السامع بانتقاله إلى فكرة جديدة، ثم يبدأ بالحديث عن عنصر الفقرة الجديدة بنبرة جديدة تناسب مع الحال والمقام .

٣ـ أسلوب الانتقال بترقيم الفقرات: فيقوم الخطيب بترقيم فقرات خطبته، فيقول: النقطة الأولى ... النقطة الثانية .... النقطة الثالثة، وهكذا حتى ينتهي من عرض عناصر هذه الفكرة.

وعلى الخطيب أن يعتني بالأساليب البلاغية البيانية أثناء عرضه لموضوع خطبيه، فإن البيان يسحر القلوب ويأخذ بالألباب، فعن عمار بن ياسر – رضي الله عنه – قال :سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ:" إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا"(٦٨).

من الأساليب البلاغية التي ينبغي للخطيب أن يستخدمها أسلوب السجع: فإذا أراد الخطيب أن يتكلم بالسجع فليختر منه ما ليس بمتكلف؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن هذا النوع من السجع، فعن فعن أبي هريرة قال اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دية جنينها غرة عبد أو وليدة وقضى بدية المرأة على عاقلتها وورثها ولدها ومن معهم فقال حمل بن النابغة الهذلي يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع"(٦٩)، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" فقال العلماء : إنما ذم سجعه لوجهين : أحدهما : أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله .

والثاني : أنه تكلفه في مخاطبته ، وهذان الوجهان من السجع مذمومان .

---

(٦٨) صحيح مسلم، برقم (٨٦٩).

(٦٩) صحيح مسلم، كتاب القسامة، برقم (٣١٨٥).

وأما السجع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوله في بعض الأوقات وهو مشهور في الحديث فليس من هذا؛ لأنه لا يعارض به حكم الشرع ، ولا يتكلفه، فلا نهي فيه، بل هو حسن، ويؤيد ما ذكرنا من التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : " كسجع الأعراب "، فأشار إلى أن بعض السجع هو المذموم . والله أعلم "[٧٠] .

قال ابن الأثير:" واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام ، والنفس تميل إليه بالطبع، وينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة، وأعني بقولي غثة باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن، وهو الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكرسف أو ينظم عقداً من الخزف الملون.

وهذا مقام تزل عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً. فإذا صفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه، على باطن

([٧٠]) شرح صحيح مسلم، للنووي ٦/ ٩٦.

مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب، على نصل من خشب، وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما"[٧١] .

قال الإمام ابن حجر:" قال الغزالي المكروه من السجع هو المتكلف لأنه لا يلائم الضراعة والذلة، وإلا ففي الأدعية المأثورة كلمات متوازية لكنها غير متكلفة، قال الأزهري: وإنما كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع؛ لمشاكلته كلام الكهنة. وقال أبو زيد وغيره : أصل السجع القصد المستوي ، سواء كان في الكلام أم غيره"[٧٢] .

وقد جاء السجع غير المتكلف في عدد من الأحاديث والأدعية النبوية، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" ... اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها"[٧٣].

وعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب على المشركين فقال:" اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"[٧٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من سوء القضاء ومن درك الشقاء ومن شماتة الأعداء ومن جهد البلاء"[٧٥]

---

(٧١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، صـ٦٩، باختصار.

(٧٢) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر ١٨/ ١٠٧، باختصار

(٧٣) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، برقم(٤٨٩٩)، باختصار.

(٧٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، برقم(٢٧١٦).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قام يوم فتح مكة وهو على درج الكعبة فحمد الله وأثنى عليه فقال:" الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"[٧٦] .

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن جاءه فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال:" أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام [٧٧].

ومن أمثلة السجع الحسن ما جاء في خطبة قس بن ساعدة الإيادي التي يقول فيها : أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، بحار تزخر، ونجوم تزهر، ومطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وضوء وظلام، وبر وآثام، لباس ومركب، ومطعم ومشرب، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، أقسم قس قسما حقا، لئن كان في الأرض رضا ليكون سخطا ،إن لله دينا هو أحب الأديان إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام هناك فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا ؟ ثم قال: أقسم قس قسما برا لا إثم فيه ما لله على الأرض دين هو

---

(٧٥) صحيح مسلم، برقم (٤٨٨٠)

(٧٦) صحيح ابن ماجة، برقم(٢١٢٧).

(٧٧) سنن الترمذي، برقم (٢٤٨٥) وصححه، ووافقه الألباني.

أحب إليه من دين أظلكم إبانه، وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن أدركه ففارقه"[٧٨].

وعلى الخطيب أن يوازن بين الإيجاز والإطناب: هذا فن معروف عند أهل البلاغة فهل الأفضل للخطيب أن يوجز في خطبته أم يطنب فيها؟ وهنا نقول: إن هذا يختلف، باختلاف السامعين، وموضوع الخطبة، وطريقة القائه، ومن الأفضل للخطيب أن يوجز في خطبته، وقد جاء في السنة ما يحث على الإيجاز ،فعن أَبُي وَائِلٍ قال : خَطَبَنَا عَمَّارٌ – رضي الله عنه – فَأَوْجَزَ وَأَبْلَغَ فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا يَا أَبَا الْيَقْظَانِ لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ؟ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ:" يَقُولُ إِنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ وَإِنَّ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا" [٧٩].

وعلى الخطيب إذا مرَّ بكلمات هامة أن يكررها؛ حتى تثبت في قلوب السامعين، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية العديد من الأمثلة الدالة على هذا الأسلوب: قال تعالى:﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ [القارعة: ١ – ٣]، وقال تعالى:﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ ﴾ [الحاقة: ١ – ٣]، ومما جاء في السنة النبوية، حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رضي الله عنه – قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَخْطُبُ يَقُولُ:" أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ " [٨٠].

---

(٧٨) دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني ١/ ٦٦، والبيان والتبيين، للجاحظ، ١/ ١٦٨.

(٧٩) سبق تخريجه قبل قليل.

(٨٠) مسند أحمد، برقم(١٧٩٣١)،وقال الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (٥٦٨٧) : إسناده صحيح.

وعن أَبِي بَكْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:" أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلاثًا قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلا وَقَوْلُ الزُّور، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ" (٨١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً، حتى تفهم عنه(٨٢).

وعَنْ مِحْجَنِ بْنِ الأَدْرَعِ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ:" يَوْمُ الْخَلاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلاصِ، يَوْمُ الْخَلاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلاصِ، يَوْمُ الْخَلاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلاصِ، ثَلاثًا فَقِيلَ لَهُ وَمَا يَوْمُ الْخَلاصِ قَالَ يَجِيءُ الدَّجَّالُ فَيَصْعَدُ أُحُدًا فَيَنْظُرُ الْمَدِينَةَ فَيَقُولُ لأَصْحَابِهِ أَتَرَوْنَ هَذَا الْقَصْرَ الأَبْيَضَ هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكا مصلتا فيأتي سبخة الحرف فيضرب رواقه ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة الا خرج إليه فذلك يوم الخلاص"(٨٣).

كما ينبغي على الخطيب أن يراعي السامعين عند حديثه معهم، فإذا كانوا من عامة الناس على الخطيب أن يتنزل في العبارة إلى مستوى عقولهم، كما أن عليه أن يتجنب الألفاظ الغريبة والبعيدة التي لا تستوعبها عقولهم.

---

(٨١) صحيح البخاري، برقم (٧٠) صحيح مسلم، برقم (٢٨٢١).

(٨٢) صحيح البخاري، برقم (٩٥).

(٨٣) مسند أحمد (١٨٩٩٦)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف؛ لانقطاعه عبد الله بن شقيق لم يسمع محجن بن الأدرع.

وإذا كان جمهور المصلين من خواص الناس فعلى الخطيب أن يخاطبهم بالعبارات التي تتناسب مع مستواهم، فعلى الخطيب أن يكون حكيماً في خطبه مع جميع الفئات، فيلقي الخطب المناسبة في الوقت المناسب للأشخاص المناسبين.

ثالثا: خاتمة الخطبة

بعد أن ينتهي الخطيب من مقدمة خطبته ومن محتوى عناصرها، سيصل إلى خاتمة خطبته، وخاتمة الخطبة لا تقل أهمية عن افتتاحيتها؛ لأن ما يقوله الخطيب في نهاية خطبته هو الذي يبقى عالقاً في أذهان المصلين.

وفي افتتياحية الخطبة وخاتمتها تظهر براعة الخطيب وتمكنه من الخطابة، وهنا قد يقول قائل: كيف يختم الخطيب خطبته بطريقة مناسبة ؟ وخاصة أن هناك بعض الخطباء لا يدري كيف يختم خطبته، ويظل عقله مشغول بالكلام أثناء خطبته، فيضطر إلى الوقوف الاضطراري، ويقول للحاضرين أمامه:" هذا ما تيسر جمعه واعداده حول هذا الموضوع، ثم يدخل في الدعاء في نهاية الخطبة ثم يتوقف، فما الحل لمثل هذه المشكلة؟

وهنا نقول: إنه يجب على الخطيب أن يخطط لخاتمة خطبته مسبقاً، وعليه أن يحدد الفكرة التي سينهي بها موضوع خطبته، وهنا سوف نذكر بعض المقترحات لخاتمة مناسبة لخطبة ناجحة.

فمن أجمل ما يختم به الخطيب خطبته أن يلخص لجمهور المصلين الأفكار الرئيسة لموضوع خطبته، بعبارات جامعة مختصرة ، وقد قال بعض الفصحاء

: إذا أردت أن تحدث قوماً فأخبرهم أولاً بما تنوي إخبارهم به ، ثم أخبرهم ، ثم أخبرهم بما أخبرتهم به .

وما أجمل أن يختم الخطيب خطبته أن يختمها بآية قرآنية كريمة أو بحديث نبوي شريف، بحيث يكونا مناسبين لموضوع الخطبة التي ألقاها.

ومن ذلك أن يختم الخطيب موضوعه بأبيات شعرية مناسبة للموضوع؛ لأن الشعر محبب للنفوس.

ومن ذلك أن بختم الخطيب موضوع خطبته بدعاء يتناسب مع موضوع خطبته.

كما ينبغي على الخطيب أن يوصي الحاضرين ببعض الوصايا العملية التي ينبغي عليهم أن القيام بها خلال أسبوعهم أن تأتي الخطبة القادمة

المبحث الرابع: توجيهات لخطيب الجمعة

هذه مجموعة من التوجيهات والضوابط التي يحسن بخطيب الجمعة مراعاتها أثناء اعداده لخطبة الجمعة، وهذه التوجيهات سوف نتناولها على النحو التالي:

أولاً: حسن اختيار موضوع الخطبة

وذلك أن موضوع الخطبة هو روح الخطبة ولبها، وبحسب اختيار موضوع خطبة الجمعة يكون أثر الخطبة على السامعين، والخطيب الناجح هو الذي يقدر جمهوره، ويحترم عقولهم ويقدر أوقاتهم؛ فيحرص غاية الحرص على أن يكون موضوع خطبته نافعا للناس مفيداً لهم في دنياهم وأخراهم.

ومما يعين الخطيب على حسن اختياره لموضوع خطبة الجمعة أن يكون لموضوع خطبته هدفا واضحا ومحدداَ، وبحسب ذلك الهدف ينبغي للخطيب أن يِبني عليه خطبته وينظم عقدها، ويحدد محاورها، وأن يتأكد من كون ذلك الهدف صالحاً للعرض على الناس، نافعاً لهم.

والأهداف التي ينبغي للخطيب أن يسعى لتحقيقها في جمهوره على نوعين، وقد وضح هذه الأهداف صاحب كتاب هدى الاسلام، حيث بين أنها:

١ – أهداف بعيدة المدى: بحيث يِجعل الخطيب في الحي أو البلدة أو القرية مجموعة من الأهداف يسعى لتحقيقها في حيِه أو بلدته فيرسم معالم للتغيير الذي ينشده وطرائق لمعالجات الواقع في مجتمعه مراعيًا في ذلك الموازنة من جلب المصالح ودرء المفاسد، ويِكون وضع هذه الأهداف في ضوء دراسته للبيئة التي يعيش فيها .

٢ – الأهداف الخاصة بكل خطبة: بحيث يكون الخطيِب قاصدا لأهداف يرِيد تحقيقها وغايات وأغراض يريد الوصول إليها . [٨٤].

ويبغي للخطيب بعد أن يحسن اختيار موضوع خطبته، ويضع له هدفاً محدداً عليه أن يهتم بخدمة موضوعه طوال الأسبوع، فيبحث عن مراجع هذا الموضوع، ويدون بعض الفوائد المتعلقة به، وإذا أشكلت عليه نقطة من نقاط الموضوع عليه أن يسأل أهل العلم عنما أشكل عليه، فيخرج موضوع خطبته وقد تم نضجه، واستوى على سوقه.

وهناك عدة اعتبارات لاختيار الموضوع، منها :

١ـ عدد المستمعين: فبعض المواضيع الجماهيرية تحتاج إلى جمع غفير، يتفاعل مع رسالة الخطيب، ويسهم في تحقيق الهدف من الموضوع، ولهذا كان إذا نزل به أمر عام نادى بالصلاة والاجتماع وخطب الناس، فعن عبد الله بن عمرو أنه قال لما كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نودي إن الصلاة جامعة فركع النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين في سجدة ثم قام فركع ركعتين في سجدة ثم جلس ثم جلي عن الشمس قال وقالت عائشة رضي الله عنها ما سجدت سجودا قط كان أطول منها"[٨٥] .

وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليه فقال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلا فمنا من

([٨٤]) هدي الإسلام، ليحيى سالم ، العدد ٤ المجلد ٣٢ صـ ٥٢ .

([٨٥]) صحيح البخاري، برقم (٩٩٢) .

يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو في جشره إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:" إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه..."[٨٦] .

٢ـ حاجات المستمعين: ادرس جمهورك، وفكّر باحتياجاته ورغباته، وقدّم الأهم فالمهم ، سواء في الأمور العقدية، أو الشرعية، أو محاربة المنكرات، وغيرها .

بعض الخطباء يقترف خطئاً فيختار الموضوعات الذي تهمه هو، ويهمل الموضوعات التي تهم المستمعين؛ ولهذا أوصى النبي معاذاً لما بعثه إلى اليمن بالبدء بالتوحيد؛ لأنه أولى المطالب، فعن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا رضي الله عنه على اليمن قال :"إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس"[٨٧]

([٨٦]) صحيح مسلم، برقم (٣٤٣١).

([٨٧]) صحيح البخاري، برقم، (١٣٦٥).

٢ـ **ثقافة المستمعين**، ودرجة تدينهم: فمن حكمة المتحدث أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، فعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال :" حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله " [٨٨] .

وفي مقدمة مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة "[٨٩] .

([٨٨]) صحيح البخاري، برقم، (١٢٤).

([٨٩]) صحيح مسلم ١/ ٢١.

ثانياً: العناية بإعداد خطبة الجمعة

إن الخطيب الناجح هو الذي يَعتني بإعداد الخطبة التي سيلقيها على جمهوره من المصلين يوم الجمعة، ويبدأ هذا الإعداد بالقراءة الواسعة في موضوع الخطبة الذي سيلقيه، وهذه القراءة الواسعة من شأنها أن تثري موضوع الخطبة وتجعل الخطيب ملما بأطراف الموضوع وجوانبه، وهذه القراءة تجعله قادراً على الإجابة على بعض الأسئلة التي قد توجه له من قبل بعض المصلين.

وعلى الخطيب أن يتفرغ من الشواغل أثناء أعداده لخطبته، وقد أوصى أبو تمام البحتري بذلك قائلاً :" ياأبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخف عليها ثقل الغذاء. واحذر المجهول من المعاني وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الوحشية وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام. وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك لا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ولا تنظم إلا بشهوة فإن الشهوة نعم المعين على حسن النظم. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما استقبحوه فاجتنبه"[٩٠].

فيبدأ بجمع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بموضوع الخطبة، ويِستعِين على ذلك بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد

([٩٠]) جواهر الأدب، لأحمد الهاشمي١/ ١٠.

الباقي، فإذا أراد أن يخطب عن الصدق رجع إلى المعجم ليستخرج الآيِات الدالة على هذا الموضوع، ثم يعود إلى أقوال أهل التفسير؛ لبيان المعنى المراد من هذه الآيات القرآنية، وبحيث يضبط فهمه لهذه الآيات بأقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين؛ حتى لا يقول في كتاب الله برأيه وهواه، فَيَضل وَيزِل.

ثم بعد ذلك يعود إلى السنة النبوية، فيجمع الأحاديث النبوية المتعلقة بالموضوع، ويستعين على ذلك، بكتب السنة الصحيحة، كصحيح البخاري ومسلم وبقية كتب الأمهات الست وغيرها من دواوين السنة، مع الاطلاع على شروح هذه الأحاديث من الشروح المعتمدة لهذه الكتب.

ثم بعد ذلك يراجع كتب أهل العلم التي تتحدث عن هذا الموضوع، فإن كان في موضوع الخطبة كتابا مؤلفاً يتحدث عن هذا الموضوع فإن ذلك أفضل وأنفع للخطيب، قد يغنيه عن عناء البحث عن أطراف الموضوع في مظانه المختلفة.

وإن كان موضوع الخطبة فيه قضايا فقهية رجع إلى كتب الفقه التي تتحدث عن ذلك، وإذا كان فيه ذكر لقضايا عقديِة رجع إلى كتب العقيدة التي تحدثت عن هذه الجزئية، وإذا كان موضوع الخطبة يتحدث عن قضية معاصرة يحسن بالخطيب أن يراجع كلام المعاصرين المتخصصين في هذا الموضوع.

وهكذا يفعل في بقية الموضوعات التي قد يتحدث عنها في خطبته، مع الإستفادة من فهارس تلك الكتب للاهتداء إلى الموضوع الذي سيتحدث عنه.

وبعد جمعه لمادة الخطبة وعناصرها، عليه أن يضع خطة مناسبة لإلقاء خطبته، ويِراعي في ذلك تسلسل الأفكار، وترابط العبارات والجمل.

ثالثاً: الحرص على الوحدة الموضوعية لخطبة الجمعة

إن مما يساعد الناس على فهم موضوع خطبة الجمعة أن يتحدث الخطيب عن موضوع واحد، وأن لا يتناول في خطبته جملة من الموضوعات المتنوعة والمختلفة.

وعدم وحدة موضوع الخطبة، وخروج الخطيب عن موضوعه إلى موضوعات أخرى له عدة مساوئ كثيره ذكر بعضها الشيخ محمد أبو فارس، ومنها:

١ – تشتيت ذهن السامع وجعله في حيرة من أمره، فلا يستطيع التركيز في الفهم فيخرج بدون فائدة واضحة قيمة مما سمع.

٢ – ازدحام الموضوعات في ذهن السامع وكثرتها بحيث يُنسي بعضها بعضًا .

٣ – إن من شأن الخطبة التي تُعالج فيها موضوعات عدة أن تكون المعالجة لما يطرح فيها معالجة سطحية مسحية عاجلة لا تضع كما يقال: "النقاط على الحروف" فتوجد إشكالات في ذهن السامع لا يجد إجابة لها، بعكس التركيزِ على فكرة أو موضوع، فمن شأن ذلك أن يَجعل الخطيب يوفي الموضع حقه[٩١].

وسنختار موضوعاً يكون الحديث عنه موحدا، وسنمثل على ذلك بموضوع الإيمان بالله تعالى، فمما قد يحتويه هذا الموضوع:

أهمية الإيمان بالله تعالى

([٩١]) إرشادات إلى تحسين خطبة الجمعة، لمحمد أبو فارس، صـ ٣٣ .

ذكر أركان الإيمان

ذكر نماذج من أهل الإيمان

بيان ثمرات الإيمان بالله تعالى في الدنيا والآخرة

فالحديث عن موضوع الإيمان من جميع جوانبه وعدم الخلط بينه وبين موضوعات أدعى لفهم الموضوع واستيعابه، فعلى الخطي بأن يراعي ذلك أثناء اعداده لخطبة الجمعة.

رابعاً: التثبت من صحة الأحاديث النبوية

التثبتَ خُلق نبيل دعا إليه الإسلام، وحثَّ عليه، والخطيب أولى الناس اتصافاً بهذا الخلق، فلا يعتمد الخطيب على نقولات الناس وأقوالهم، فإن تناقل القول ليس دليلا على صحته، قال الدكتور مصطفى السباعي – رحمة اللَه:" والجماهير دائمًا أسرع إلى إساءة الظن من إحسانه . . . فلا تصدق كل ما يقال ولو سمعته من ألف فم حتَى تسمعه ممن شاهده بعينه، ولا تصدق من شاهد الأمر بعينه، حتى تتأكد من تثبته فيما يشاهد، ولا تصدق من تثبت فيما يشاهد حتىَ تتأكد من خلوه من الغرض والهوى[٩٢].

ومن الأدلة القرآنية على وجوب التثبت من الأخبار قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [٩٣]، قال الإمام ابن جرير الطبري:" أمهلوا حتى تعرفوا صحته ولا تَعجلوا بقبوله؛ لئلا تصيبوا قومًا براء مما قذفوا به بجهالة منكم﴿ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ يقول: فتندموا على إصابتَكم إياهم بالجنايةَ التي تصيبونهم بها [٩٤].

ومما يحتاج الخطيب إلى التثبت منه نصوص السنة النبوية؛ وذلك أنه من المقرر عند جميع المسلمين أن القرآن الكريم قطعي الثبوت، فهو منقول بالتواتر ولا يتطرق إلى شيء منه احتمال عدم ثبوت وصحة، أما السنة النبوية فهي في جملتها ظنية الثبوت؛ ولذلك وجب على ناقل النص من السنة التثبيت

---

(٩٢) مصطفى السباعي، أخلاقنا الاجتماعية ص٦٠.

(٩٣) سورة الحجرات: ٦.

(٩٤) جامع البيان، للطبري ، ٢٦ / ١٢٣ .

من صحته؛ لأن الخبر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خبر عن اللّه، وليس كذبًا على اللّه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ككذب على أحد على من سواهما.

وللأسف أن بعض الخطباء يتساهل في مسألة التثبت من صحية الأحاديث النبوية، ولا يكلف نفسة بالبحث عن صحة هذه الأحاديث من ضعيفها، والطامة الكبرى أن بعض الخطباء يظن ان كل كلام قيل فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حديث صحيح، ولو علم هذا الخطيب الوعيد الشديد لمن يروي عن رسول الله كلاما دون التثبت من صحته لراجع نفسه، ونذكر هنا بعض الأحاديث التي تنهى عن الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعن المغيرة بن شعبة – رضي اللّه عنه – قال: سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول: « إن كذبًا علي ليس ككذب على أحد، من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعدة من النار » [٩٥].

وعن علي بن أبي طالب – رضي اللّه عنه – قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « لا تكذبوا عليّ فإنه من كذب عليّ متعمدًا فليلج النار » " [٩٦].

وعن سلمة – رضي اللّه عنه – قال سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول: « من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»[٩٧].

([٩٥]) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة علي الميت، برقم(١٢٠٩)، مقدمة صحيح مسلم برقم(٥)، ١/ ١٣.

([٩٦]) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى اللّه عليه وسلم، برقم(١٠٣).

([٩٧]) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، برقم(١٠٦).

وتزداد أهمية التثبيت من صحة الأحاديث النبوية بشكل عام حينما تكثر الفتن، وتضطرب الأحوال، ويقل العلم، وتهر البدع؛ لأنه في هذه الأحوال تكثر فيها الكذب والافتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فعن مجاهد قال جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه فقال يا ابن عباس مالي لا أراك تسمع لحديثي أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع فقال ابن عباس إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف"[٩٨].

وقال الإمام محمد بن سيرين – رحمه اللّه – لم يكونوا يِسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع، فلا يؤخذ حديثهم" [٩٩].

فعلى الخطيب إذا أراد أن يخطب أن يتثبت من صحة الأحاديث التي سيلقيها على مسامع المصلين؛ وذلك بمعرفة الكتب التي وردت فيها، فإن كانت في البخاري ومسلم أو أحدهما كان ذلك دليَلا على صحتها، وإن كانت في غيرهما من دواوين السنة بحث عن حكم أهل العلم على هذه الأحاديث، فما حكموا عليه بالصحة أثبتها في خطبته وما حكموا عليه بالضعف أو بالوضع استبعده

([٩٨]) صحيح مسلم، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحمله ١/ ٢٧.

([٩٩]) الكفاية في علوم الرواية، للخطيب البغدادي، صـ١٢٢.

وتركه؛ حتى لا يكون ممن يتعمدون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومما ينبغي التثبت منه التثبت في فهم النص النبوي؛ وذلك أن الحديث النبوي قد يكون صحيحًا من جهة النقل، ولكن الفهم الخاطئ لهذا الحديث يخل بالمعنى المراد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" فإن كثيرًا من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم وسائر ما به يعرف مرادهم قد يتعسر على بعض الناس ويتعذر على بعضهم" [١٠٠].

وقال السبكي: "فكثيراً ما رأيت من يسمع لفظة فيفهمها على غير وجهها فيغير على الكتاب والمؤلف ومن عاشره واستن لسننه . . مع أن المؤلف لم يرد ذلك الوجه الذي وصل إليه هذا الرجل) [١٠١].

فقد يعيب المرء القول وهو غير معيب :

فكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

وقد يفهم الخطيب من الحديث فهماً وهو فهماً غير صحيح، ولو راجع شروح العلماء لهذا الحديث؛ لتضح له المعنى المراد منه، ولأزيل عنه الفهم الخاطئ لهذه الحديث.

وأما الاعتماد على ما يتبادر إلى الذهن في فهم النص، وعدم التثبت فذلك موقع في الخطأ والزلل الذي لا يعذر صاحبه اذا تعمد ذلك.

([١٠٠]) الفتاوي، لابن تيمية ، ٦ / ٣٠٣.

([١٠١]) قاعدة في الجرح والتعديل، للسبكي، صـ ٩٣.

خامساً: الموازنة بين البشارة والنذارة

من الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى أن يوازن الخطيب في خطبة بين البشارة والنذارة، وهذا المنهج سار عليه أنبياء الله ورسله، فهم يبشرون في مواضع البشارة ، وينذرون في مواضع النذارة، ويجمعون بينهما في مواضع الجمع، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[١٠٢] ، قال الشيخ المراغي في تفسيره عند هذه الآية:" أي أرسلنا رسلا قد قصصنا بعضهم عليك ولم نقصص بعضا آخر، ليكونوا مبشرين من آمن وعمل صالحا بالثواب العظيم، وينذروا من كفر وأجرم بالعذاب الأليم، إذ لو لم يرسلهم لكان للناس أن يحتجوا إذا هم أجرموا أو كفروا بأنهم ما فعلوا ذلك إلا لجهلهم ما يجب من الإيمان والعمل الصالح.

فمن حكمة إرسال الرسل قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل عند ما يحاسبهم الله ويقضى بعقابهم، فلولا إرسالهم لكان لهم أن يحتجوا فى الآخرة على عذابهم فيها وعلى عذاب الدنيا الذي كان قد أصابهم بظلمهم.

والدّين وضع إلهىّ لا يستقل العقل بالوصول إليه ولا يعرف إلا بالوحى وهو موافق لسنن الفطرة فى تزكية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية فى عالم القدس، ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حدده الله فى الدنيا والآخرة، ولن يكون هذا الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الصحيح.

([١٠٢]) النساء: ١٦٥.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أي وكان الله عزيزا لا يغالب فى أمر يريده، ومن عزته ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه، حكيما فى جميع أفعاله، وحكمته تقضى هذا الامتناع عن الإجابة لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصرّوا على لجاجهم كما فعلوا مع موسى بعد أن جاءهم بما طلبوا"[١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [١٠٤]،قال الشيخ السعدي في تفسيره عند هذه الآية:" أي: كان الناس مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع، فبعث الله الرسل ﴿مُبَشِّرِينَ ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك، الفوز برضوان الله والجنة.

﴿وَمُنذِرِينَ ﴾من عصى الله، بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك، سخط الله والنار[١٠٥] .

إن بعض الخطباء يكون ذا طبيعة نفسية مائلة إلى جانب التخويف والإنذار، فيؤثر ذلك على خطبه، فنراه في معظم خطبة يستخدم اسلوب الإنذار والترهيب، وهذا اللون من الخطب يبعث اليأس في قلوب المصلين ويحطم نفسياتهم،

---

[١٠٣] تفسير المراغي ٦/ ٢٣، باختصار.

[١٠٤] سورة البقرة: ٢١٣.

[١٠٥] تفسير السعدي، صـ ٩٥ ، باختصار.

.

ويقلل حماسهم في التمسك بهذا الدين، والحكمة أن يوازن الخطيب بين البشارة والنذارة.

إن الخطيب قد يحتاج إلى اسلوب الإنذار والترهيب عندما يرى الناس قد اعرضوا عن دين الله عز وجل، ركنوا إلى الحياة الدنيا، وأقبلوا على شهواتها وأخذا يتنافسوا على جمع حطامها من حله أو من حرامه، ففي هذه الحالة لابأس بأن بغلب الخطيب جانب النذارة على جانب البشارة.

وللخطيب أسوة في أنبياء الله ورسله، عليهم الصلاة والسلام فقد فعلوا ذلك، وكانوا ينذرون أقوامهم، ويخوفونه لما يرونه من إعراضهم عن دين اللّه عز وجل فكان الواحد منه يقول لقومه: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [١٠٦].

والله عز وجل أمر أنبياءه بالنذارة لأقوامهم، فقال لنبيه نوح عليه السلام: ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١٠٧]، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [١٠٨] ، وقال له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ [١٠٩].

وقد يحتاج الخطيب لاستخدام اسلوب التبشير والترغيب إذا كان يغلب على جمهور المصلين الصلاح والمحافظة على معظم الطاعات والعبادات، وكانوا من أهل الإيمان والتقوى هنا يستحقون بأن يرغبهم الخطيب وبأن يذكرهم بما

---

(١٠٦) سورة الشعراء:١١٥.

(١٠٧) سورة نوح :١.

(١٠٨) سورة الشعراء:٢١٤ .

(١٠٩) سورة المدثر :١ ـ٢ .

أعده الله لهم، وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[١١٠]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [١١١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [١١٢]، وقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾[١١٣].

واسلوب التبشير والترغيب وبعث الأمل في النفوس حين الاضطراب والضعف والخوف وعند نزول البلاء؛ ولذلك عندما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم خائفاً مضطربا بعد نزول الوحي عليه في الغار بشرته أم المؤمنين خديجة – رضي اللّه عنها – بما يزيل عنه دواعي الاضطراب وأسباب الخوف فقالت: « كلا، أبشر فواللّه لا يخزيك الله أبدا ، فوالله إليك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق » [١١٤] .

وقد استخدم النبي صلى اللّه عليه وسلم أساليب التبشير لأمته في كثير من المواطن،

([١١٠]) سورة البقرة : ٢٥ .

([١١١]) سورة مريم: ٩٧.

([١١٢]) سورة البقرة : ٢٢٣ .

([١١٣]) سورة الزمر : ١٧.

([١١٤]) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، برقم(٣) .

فقد بشر أصحابه بالرفعة والظهور على الأديان، وهم في أشد حالات الضعف، وأعداؤهم متسلطون عليهم، ففي مسند أحمد:« بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض » [١١٥].

وبشر المشائين في الظلم إلى المساج بالنور التام يوم القيامة، فعن بُرَيْدة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " بشِّرِ المشَّائين في الظُّلَمِ إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة "[١١٦].

وبشر من صلى العشاء في وقت عتمة الليل، فعن أبي موسى قال كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في السفينة نزولا في بقيع بطحان والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فكان يتناوب النبي صلى الله عليه وسلم عند صلاة العشاء كل ليلة نفر منهم فوافقنا النبي صلى الله عليه وسلم أنا وأصحابي وله بعض الشغل في بعض أمره فأعتم بالصلاة حتى ابهار الليل ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم فصلى بهم فلما قضى صلاته قال لمن حضره:" على رسلكم أبشروا إن من نعمة الله عليكم أنه ليس أحد من الناس يصلي هذه الساعة غيركم ... قال أبو موسى فرجعنا ففرحنا بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١١٧].

كما بشر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بأنهم سيكونوا شطر أهل الجنة في الآخرة ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى:" يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول أخرج

([١١٥]) مسند أحمد، برقم (٢١٢٥٨)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

([١١٦]) صحيح أبي داود، للألباني، برقم(٥٧٠).

([١١٧]) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، برقم(٥٣٤)، باختصار.

بعث النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [١١٨] قالوا يا رسول الله وأينا ذلك الواحد قال:" أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألفا ثم قال والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود"[١١٩] .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من عمل عملاً صالحاً يبتغي به وجه الله تعالى ثم حمده الناس على ذلك، فإن ذلك من عاجل بشرى المؤمن في الدنيا، عن أبي ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال:" تلك عاجل بشرى المؤمن"[١٢٠].

وكان صلى الله عليه وسلم يغضب ممن لا يتقبل البشرى، فعن عمران بن حصين قال جاءت بنو تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:" أبشروا يا بني تميم" قالوا أما إذ بشرتنا فأعطنا فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء ناس من أهل اليمن فقال النبي صلى الله عليه وسلم:" اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم" قالوا قد قبلنا يا رسول الله"[١٢١] .

([١١٨]) الحج: ٢.

([١١٩]) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق، برقم(٣٠٩٩)

([١٢٠]) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، برقم(٤٧٨٠).

([١٢١]) صحيح البخاري، كتاب المغازي، برقم (٤٠٣٥).

وكان صلى الله عليه وسلم يبشر من تاب الله عليه من أصحابه، فلما تاب الله على كعب ابن مالك أتى كعب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم عليه، فوجد وجه النبي صلى الله عليه وسلم يبرق من السرور، ثم قال له:" أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك"(١٢٢) .

---

(١٢٢) صحيح مسلم، كتاب التوبة، برقم(٤٩٧٣)، وتمام القصة على النحو الآتي، قال كعب بن مالك لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوا كثيرا فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب بن مالك قال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون فقال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي فلما قيل لي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا فأجمعت صدقه وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا

يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي هذا معي من أحد قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك قال قلت من هما قالوا مرارة بن الربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي قال ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس وقال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمن أني أحب الله ورسوله قال فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها بها حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها فلا تقربنها قال فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت إنه والله ما به حركة إلى شيء و والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا

فليحرص الخطيب على الموازنة بين اسلوب البشارة والنذارة، وليستخدم كل أسلوب مع الناس الذين يحتاجونه، فإن ذلك أدعى في نجاحه في أداء رسالته في خطبة الجمعة.

رجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفي على سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج قال فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلي فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة ويقولون لتهنئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال فقلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله فقال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك قال فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر قال وقلت يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت قال فوالله ما علمت أن أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي قال فأنزل الله عز وجل:" ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ التوبة: ١١٧ – ١١٩ ،

سادساً: تقصير خطبة الجمعة وتطويل صلاتها

المقصود من خطبة الجمعة إفادة السامعين وتذكيرهم بما يهمهم من أمور دنياهم وأخراهم، ولاشك أن إطالة الخطيب للكلام في خطبة الجمعة يجعل كلامه ينسي بعضه بعضًا، ويجعل السامعين يملون من الخطيب وينفرون من خطبته، والأفضل أن الخطيب يختصر الكلام في خطبته، ويكون اختصاره غير مخل في المعنى والمحتوى.

فقد وردت في السنة أحاديث كثيرة تدل على ذلك، فعن واصل بن حيان قال: « قال أبو وائل: خطبنا عمار فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت فلو كنت تنفست، فقال : إني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: " إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة[١٢٣] ، من فقهه فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرا » [١٢٤]قال ابن الأمير الصنعاني في شرح لهذا الحديث:" وإنما كان قصر الخطبة علامة على فقه الرجل؛ لأن الفقيه هو المطلع على حقائق المعاني وجوامع الألفاظ، فيتمكن من التعبير بالعبارة الجزلة المفيدة، ولذلك كان من تمام هذا الحديث " فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة وإن من البيان لسحراً "، فشبه الكلام العامل في القلوب الجاذب للعقول بالسحر، لأجل ما اشتمل عليه من الجزالة وتناسق الدلالة وإفادة المعاني الكثيرة ووقوعه في مجازه من الترغيب والترهيب ونحو ذلك ولا يقدر عليه إلا من فقه في المعاني وتناسق دلالتها فإنه يتمكن من الإتيان بجوامع

([١٢٣]) أي علامة على فقهه، شرح صحيح مسلم، للنووي ٣/ ٢٤٩.

([١٢٤]) صحيح مسلم، برقم(١٤٣٧).

الكلم وكان ذلك من خصائصه صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّم، فإنه أوتي جوامع الكلم، والمراد من طول الصلاة طول الذي لا يدخل فاعله تحت النهي وقد كان صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّم يصلي الجمعة بالجمعة والمنافقون وذلك طول بالنسبة إلى خطبته وليس بالتطويل المنهي عنه"[١٢٥].

وعن جابر بن سمرة قال كنت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا"[١٢٦]، قال الإمام الشوكاني في شرحه لهذا الحديث:" معنى قوله: " قصدًا " القصد في الشيء هو الاقتصاد فيه وترك التطويل . وإنما كانت صلاته صلى اللَّه عليه وآله وسلم وخطبته كذلك لئلا يمل الناس .

وإنما كان قصر الخطبة علامة من فقه الرجل؛ لأن الفقيه هو المطلع على جوامع الألفاظ فيتمكن بذلك من التعبير باللفظ المختصر على المعاني الكثيرة .

وأحاديث الباب فيها مشروعية إقصار الخطبة ولا خلاف في ذلك، والعجب من أقوام يطيلون الخطبة في صلاة الجمعة حتى تمل الناس سماع خطبتهم ولربما يأتون بخطبهم بما يروج اعتقادهم أو يحبذ رأيهم أو إطراء الشيخ والثناء عليه وغير ذلك مما يخرجها عن مقصودها المشروع له الخطبة، ويقصرون الصلاة ويتجاهلون أن فعل ذلك مخالف للشرع، ومع هذا لو نبههم شخص إلى مثل ذلك

([١٢٥]) سبل السلام شرح بلوغ المرام، لابن الأمير الصنعاني، صـ ٥١.

([١٢٦]) صحيح مسلم، برقم(١٤٣٣).

تأولوا له باحتمالات عقلية وأدلة وهمية، نسأل اللَّه أن يوفق أئمة المساجد إلى العمل بالمشروع لا سيما ما كان له دخل في العبادات واللَّه أعلم"[١٢٧].

وعن جابر بن سمرة الوائلي قال: « كان رسول اللّه صلى عليه وسلم لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات » [١٢٨].

وعن عبد اللّه بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى اللّه عليه وسلم يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة » [١٢٩].

وحتى نقف على مقدار الوقت الذي كان يقضيه النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الجمعة يحسن بنا ذكر الروايات التي تبين ذلك، فعن النعمان بن بشير عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية، وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضا في الصلاتين"[١٣٠] ،

وعن عبيد الله بن عبد الله قال كتب الضحاك بن قيس إلى النعمان بن بشير يسأله أي شيء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة سوى سورة الجمعة فقال كان يقرأ هل أتاك"[١٣١].

([١٢٧]) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للشوكاني، ٥/ ٤٥٦، بتصرف يسير.

([١٢٨]) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب إقصار الخطب ١ / ٢٨٩ .

([١٢٩]) سنن النسائي، ٣ / ١٠٨ .

([١٣٠]) صحيح مسلم، برقم (١٤٥٢).

([١٣١]) صحيح مسلم، برقم (١٤٥٣).

وقد اتفق فقهاء المذاهب الأربعة على استحباب تخفيف الخطبة وعدم الإطالة فيها،

قال النووي وهو من فقهاء الشافعية: "ويستحب تقصير الخطبة للحديث المذكور وحتى لا يملوها، قال أصحابنا: ويكون قصرها معتدلا، ولا يِبالغ بحيث يمحقها " [١٣٢] .

وقال الزبيدي:" وقد أصحابنا . يعني الأحناف . تخفيف الخطبتين بقدر سورة من طوال المفصل[١٣٣] ، وكرهوا التطويل مطلقا"[١٣٤].

جاء في كتاب كشاف القناع" وهو من كتب الفقه الحنبلي:" ويُسن أن يقصر الخطبة، ويسن كون الخطبة الثانية أقصر من الخطبة الأولى كالإقامة مع الآذان" [١٣٥] .

وجاء في الشرح الكبير وهو من كتب الفقه المالكي في سياق بيان سنن الخطبة وتقصيرهما، والثانية أقصر من الأولى" [١٣٦].

وأرى أن الوقت المناسب للخطبة أن لا يقل عن عشرين دقيقة وأن لا يزيد عن نصف ساعة، وما زاد عن ذلك أو نقص فهو واقع بين الإطالة المملة أو التقصير المخل.

([١٣٢]) المجموع، للنووي ٤ / ٥٨٢ .

([١٣٣]) طوال المفصل: تبدأ من سورة ق إلى النازعات.

([١٣٤]) اتحاف السعادة، للزبيدي، ٣/ ٢٣١.

([١٣٥]) كشاف القناع، للبهوتي ٢ / ٣٦ .

([١٣٦]) الشرح الكبير، للدردير ١ / ٣٨٢ مع حاشية الدسوقي علية.

سابعاً . معالجة مشكلات المجتمع في خطبه

تعاني المجتمعات المسلمة من كثير من المشكلات المختلفة والمتنوعة، وخطبة الجمعة يحضرها جماعات من الناس مختلفة مشاكلهم ومتعددة همومهم، وهذا يلقي عبئاً كبيراً على الخطيب في تقديم الحلول المناسبة لكل فئة من فئات المجتمع، والخطيب الناجح كالطبيب الحاذق، فهو يشخص الأمراض ثم يقدم العلاج المناسب لكل حالة.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الخطيب وهو يعالج مشكلات المجتمع ينبغي عليه أن لا يبالغ في وصف تلك المشكلات، وبيان أماكن تواجدها وطريقة أهل الشر في ابتكارها وايجادها، والطرق الموصلة إليه؛ فإن ذلك الوصف قد يغري ضعفاء النفوس في الوقوع في تلك المشكلات وممارسة تلك المنكرات، ويحصل بذلك عكس ما أراده الخطيب.

وبعض الخطباء قد يتناول في خطبته الحديث عن مشكلة من المشكلات، ولا يذكر لجمهور المصلين ما يمكنهم عمله لحل تلك المشكلة، فهو بذلك يقوم بتأجيج مشاعرهم فقط، ولم يذكر لهم واجباتهم العملية لحل تلك المشكلة، وعند ذلك يقف جمهور المصلين موقف المحتار الذي لا يدري ما يعمل تجاه تلك المشكلة، وقد يقوم بعض الناس بأعمال غير مناسبة لحل تلك المشكلة القائمة، وربما قد تتطور تلك المشكلة وتأخذ لها أبعاداً أخرى يصعب بعد ذلك حلها!.

وعلى الخطيب وهو يعمل على حل مشكلات المجتمع، عليه أن يبدأ بمعالجة ما كان منها حاضراً، وهي حديث الناس في مجالسهم، وعليه أن ويراعى في معالجة هذه المشكلات أن يبدأ بأكبرها ضرراَ وأسوأها أثرًا، وعليه أن يذكر أدلة

تحريمها من القرآن والسنة، وعليه في خطبته أنِ يحصر أضرارها ومساوِئها في جميع الجوانب، وعليه أن يَحض الناس على تركها والتوبة منها.

ومن المواقف العملية لحل المشكلات عن طريق الخطب ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين قسم الغنائم يوم حنين، فقد أعطى المؤلفة قلوبهم دون أن يعطى الأنصار منها شيئا، فقال بعضهم: لقي والله رسول اللَه قومه، فمشى سعد ابن عبادة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم حين جعلت الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء، وحينئذ طلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يجمع له الأنصار، ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم بينهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:" يا معشر الأنصار: ألم آتكم ضلالا فهداكم الله. وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا. بلى. ثم قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟ قالوا وما نقول يا رسول اللّه؟ وبماذا نجيبك؟ قال: واللّه لو شئتم لقلتم فَصَدَقتمِ وصدّقتم. جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفا فأمّناك، ومخذولاَ فنصرناك. فقالوا: المن للّه ولرسوله. فقال صلى الله عليه وسلم: أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم اللّه لكم من الإسلام؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول اللّه إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء

الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً"[١٣٧].

وبالتأمل في هذه الخطبة النبوية نجد أنها أسهمت في حل مشكلة الغنائم، فحولت الشاكين إلى معتذرين، والساخطين إلى راضين، فهدأت نفوسهم الثائرة، وعبروا عن أسفهم لما صدر منهم وعبروا عن ذلك في صورة بكاء فبكوا حتى اخضلت منه لحاهم.

وفي مقابل حل الخطيب للمشكلات على الخطيب أن يحض جمهوره على أعمال صالحة ومشاريع نافعة؛ لتكون كبديل لنافع لتلك المشكلات، ويذكر لهم أدلة فضل تلك الأعمال من القرآن والسنة، مع بيان أجر من يعملها، وثواب فاعليها، وخطورة تَركها والإعراض عنها.

([١٣٧]) البداية والنهاية، لابن كثير ٤ /٣٥٦) بتصرف.

ثامناً: التركيز على القضايا الكلية

على الخطيب أن يركز على القضايا الكلية التي تهم المسلم في دنياه وأخراه ،كالحديث عن أركان الإيمان والإسلام، والإيمان باليوم الآخر، وأن لا يكثر من الحديث عن القضايا الجزئية والتي تأتي في الأهمية بعد تلك القضايا الكلية، قال الإمام ابن القيم:" كانت خطبته صلى اللّه عليه وسلم إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار وما أعد اللّه لأوليائه وأهل طاعته وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا ومعرفة باللّه وأيامه، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمورا مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيمانًا باللّه، ولا توحيدًا له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيرًا بأيامه، ولا بعثًا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون، وتقسم أموالهم ويبلي الترابُ أجسادَهم، فيا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا ؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به ؟ (١٣٨).

وإذا اقتضى المقام من الخطيب الحديث عن أمور جزئية فينبغي له أن يربطها بالقضايا بالكليات، وهذا الربط له أثره البالغ في الحض على القيام بالمأمورات، واجتناب المنهيات، وكلما كان ربط الخطيب للأمور الجزئية بالقضايا الكلية ربطاً حسنا كان ذلك أدعى لقبول خطبته والانتفاع بموعظته.

(١٣٨) زاد المعاد، لابن القيم ١ / ٤٢٣

وقال العلامة ابن القيم:" كان مدار خطبه صلى الله عليه وسلم على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده وتعليم قواعد الإسلام وذكر الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه فعلى هذا كان مدار خطبه .

وكان يقول في خطبه: أيها الناس إنكم لن تطيقوا – أو لن تفعلوا – كل ما أمرتم به ولكن سددوا وأبشروا وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم"[١٣٩] .

([١٣٩]) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم ١/ ١٧٨)

تاسعاً: النصح بالتي هي أحسن

إن الناس يقعون في الأخطاء، وتصدر منهم الزلات، ويفعل بعضهم المنكرات، وهنا يأتي دور الخطيب في نصح الناس؛ حتى يقلعوا عن أفعالهم تلك، فينبغي على للحطيب أن يقدم نصحه للمصلين بالتي هي أحسن؛ حتى تؤدى خطبته الثمرة المرجوة منها، في تقديم النصح للمسلمين عن طريق منبر الجمعة.

وعلى الخطيب أن يكون لطيفًا في نصحه للمصلين، وأن يبتعد عن اسلوب الغلظة والفضاضة والتشهير بالناس من على منبر الجمعة، وأسوته في ذلك نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم الذي كان يوجه ويَنصح في الخطب قائلاً: " ما بال أقوام" وقد ورد عنه هذا الأسلوب كثيرًا، فعن أم المؤمنين عائشة رضى اللّه عنها قالت:" صنع النبي صلى اللّه عليه وسلم شيئا ترخص فيه، وتنزه عنه قوم فبلغ ذلك لنبي صلى اللّه عليه وسلم فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:" ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فواللّه إني أعلمهم باللّه وأشدهم له خشية " (١٤٠).

وقد صار هذا الأسلوب منهجًا له في توجيهه للنصح لأمته، فعن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت:" كان النبي صلى الله عليه سلم إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول ولكن يقول :" ما بال أقَوام يقولون كذا وكذا" (١٤١).

---

(١٤٠) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلوا في الدين والبدع (١٣ / ٢٨٩)، برقم(٦٧٥٧).

(١٤١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب حسن العشرة، برقم (٤٧٨٨)، وصحيحه الألباني في السلسة الصحيحة، برقم (٢٠٦٤).

كما ينبغي للخطيب أن يِكون عالمًا بما يَنصح به المصلين، ويفيد علم الخطيب بما ينصح فيه إقامة الحجة والبرهان على المنصوحين، وإقناع الناس بما يرِيد؛ لأن كلامه إذا لم يكن مقنعًا ربما كان فتنة للآخرين، بل ربما كان في قلوب بعض المنصوحين من الشبهة ما يمنعهم من قبول النصح إلا إذا كان بأسلوب مقنع وحجة ظاهرة فلا ينصح بترك شيء وهو غير متأكد من حرمته ولا يِنصح بفعل أمر هو غير متأكد من مشروعيته

ومما يدخل في حسن النصيحة أن لا يذكر الخطيب للناس خبرًا غير صادق، يكون قد سمعه أفواه الناس ولم يتأكد من صحته من مصدر موثوق، كما ينبغي عليه أن يبتعد عن تصيد أخطاء الناس؛ حتى تكون له وسائل إدانة للمنصوحين من المصلين.

عاشراً: مراعاة قدرات الناس وأفهامهم

إن الناس تتباين فهومهم، وتختلف عقولهم وقدراتهم؛ لهذا كان واجبا على الخطيب مراعاة أحوال الناس وقدراتهم على الفهم والاستيعاب، لئلا تصير خطبته فتنة لبعض المسمعين لخطبته.

وقد حاء التوجيه النبوي بمخاطبة الناس على حسب أحوالهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن:" إنك ستأتي قوما أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب"(١٤٢).

وقد جاء النهي عن تحديث الناس بما لا يعقلونه ولا يفهمونه في جملة من النصوص الشرعية، فعن معاوية بن أبي سفيان – رضى الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم: « نهى عن الأغلوطات » (١٤٣).

---

(١٤٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، برقم(١٤٠١).

(١٤٣) ضعيف الجامع الصغير وزيادته، للألباني، برقم(٦٠٣٥)، قال الأوزاعي الأغلوطات: هي شرار المسائل، والمعنى أنه نهى أن يتعرض العلماء لصعاب المسائل التي يكثر فيها اللغط، وفيه كراهية التعمق والتكلف في كل لا حاجه للإنسان إليه من المسائل، ووجوب التوقف عما لا علم للمسؤول به، وقد روينا عَن أبي بن كعب أن رجلاً سأله عن مسألة فيها غموض فقال: هل كان هذا بعد؟ قال: لا فقال امهلني إلى أن يكون، شرح سنن أبي داود، للخطابي (معالم السنن)، صـ ١٧٢٤، باختصار وتصرف يسير.

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال:" ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبضعهم فتنة " [١٤٤]، قال ابن وهب – رحمه اللّه – في الكلام عن قول ابن مسعود " إلا كان لبعضهم فتنة" وذلك أن يتأولوه غير تأويله، ويحملوه على غير وجهه " [١٤٥].

وعن علي بن أبي طالب – رضى اللّه عنه – قال:" حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله "[١٤٦]، قال الإمام العيني:" قوله حدثوا بصيغة الأمر أي كلموا الناس بما يعرفون أي بما يفهمون، والمراد كلموهم على قدر عقولهم وفي كتاب العلم لآدم بن أبي إياس عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره ودعوا ما ينكرون أي ما يشتبه عليهم فهمه، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، وقوله أتحبون الهمزة للاستفهام وتحبون بالخطاب قوله أن يكذب بصيغة المجهول؛ وذلك لأن الشخص إذا سمع ما لا يفهمه وما لا يتصور إمكانه يعتقد استحالته جهلا فلا يصدق وجوده فإذا أسند إلى الله ورسوله يلزم تكذيبهما"[١٤٧].

فنهى عن تحديث الناس بما لا يِعقلون؛ حتى لا يؤدي ذلك إلى تكذيب اللّه عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال الإمام الذهبي:" ينبغي للمحدث ألا يِشهر الأحاديث التي يتشبث بها أعداء السنة من الجهمية، وأهل الأهواء والأحاديث التي فيها صفات لم تثبت، فإنك لن

([١٤٤]) صحيح مسلم في مقدمة الصحيح (١ / ٧٦).

([١٤٥]) الاعتصام، للشاطبي (١ / ٤٨٩).

([١٤٦]) صحيح البخاري، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا، برقم(١٢٤).

([١٤٧]) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، ٣/ ٤١٧، باختصار.

تحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم، فلا تكتم العلم الذي هو علم ولا تبذله للجهلة الذين يشغبون عليك أو الذين يفهمون منه ما يضرهم"[١٤٨].

وللإمام الشاطبي كلاماً نفيساً في بيان ضابط ما يلقى وما لا يلقى من العلوم على الناس، قال: "وضابط ذلك إنك تعرض مسألتك على الشريعة فإن صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبله العقول على العموم ، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية " [١٤٩].

وقال الإمام الغزالي:" كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من كتم علما ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار"[١٥٠] ؟ فقال: اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقهه وكتمته فليلجمني فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ

([١٤٨]) سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٠ / ٥٧٨.

([١٤٩]) الموافقات، للشاطبي (٤ / ١٩١).

([١٥٠]) صحيح الترغيب والترهيب ، للألباني(١٢١)

أَمْوَالَكُمُ ﴾[١٥١] تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق"[١٥٢] .

ومن الموضوعات التي قد لا يستوعبها عوام الناس تحديثهم بدقائق العلوم وصعاب المسائل التي لاتصل إليها أفهامهم ولا تدركها عقولهم، كمن يحدث عوام الناس بدقائق المسائل في القضاء والقدر وهي مسائل لا يصلح ذكرها لعوام الناس ولا يدركها إلا خواصهم.

فينبغي للخطيب أن يكون ربانيا، والرباني من يربي الناس على صغار العلم قبل كبارها، فيبدأ معهم بالأهم قبل المهم، فعن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – أنه قال في تفسير قول اللّه عز وجل ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[١٥٣] " الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره [١٥٤] .

وقال الحافظ بن حجر – رحمه الله : والمراد بصغار العلم : ما وضح من مسائله، وبكباره : ما دق منها، وقيل: يعلمهم جزيئاته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله أو مقدماته قبل مقاصده " [١٥٥].

---

(١٥١) النساء: ٥.

(١٥٢) إحياء علوم الدين، للغزالي. ١/ ٦٢.

(١٥٣) سورة آل عمران : ٧٩.

(١٥٤) صحيح البخاري ١/ ١١٩.

(١٥٥) فتح الباري، لابن حجر ١ / ١٦٢.

المبحث الرابع: صفات الخطيب

هناك مجموعة من الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الخطباء، وفي هذا المقام سوف نذكر بعضاً من تلك الصفات، وسوف نتناولها على النحو التالي:

أولا: محبته للخطابة

من المتعارف عليه في حياة الناس أن الإنسان لا ينجح في أي عمل من أعماله إلاَّ إذا أحب هذا العمل، وهذه القاعدة تنطبق على الخطابة، وقدوة الداعية في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى، واصفاً محبة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه للدعوة إلى الله تعالى:" فقد كانت الدعوة إلى اللّه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم أحب إلى النبي عليه السلام وإلى الصحابة رضى الله عنهم من كل شئ، وكيف كانوا حريصين على أن يهتدي الناس ويدخلوا في دين اللّه وينغمسوا في رحمة اللّه، وكيف كان سعيهم في ذلك لإيصال الخلق إلى الحق"[١٥٦].

وقد بلغ من حب السلف الصالح لدعوة الخلق إلى الله تعالى أن الواحد منهم ربما بذل لهم من ماله ومتاعه؛ ليرغبَهم في الاستماع إلى خطبه نصائحه، قال الزهري قال: "كان عروة ابن الزبير يتألَّف الناس على حديثه"[١٥٧].

ومما مما يساعد الخطيب على محبته للخطابة أن يعلم الخطيب شرف الخطابة التي يقوم بها، فهو في عمله هذا ينوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في دعوة الأمة إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، وهو بعمله هذا يندرج في

([١٥٦]) حياة الصحابة، للكاندهلوى، ٥٩/١.

([١٥٧]) صفة الصفوة، لابن الجوزي،٢/ ٨٥.

زمرة التابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدق الله القائل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [158]، وعلى الخطيب أن يعلم أن قوله في الدعوة إلى الله تعالى أحسن الأقوال، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [159]، قال ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية:" أي وهو في نفسه مهتد بما يقول، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدّ، وليس هو من الّذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر، ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشرّ ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامّة في كلّ من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد، ورسوله صلّى الله عليه وسلّم أولى النّاس بذلك [160].

والأمة بحاجة إلى الخطباء الناصحين الذين يقوّمون ما اعوج من سلوك الناس، ويردُون شاردهم إلى الجادة، ويدلونهم على ما فيه فلاحهم في دنياهم وأخراهم والخطيب بعمله هذا خدمة عظيمة لأبناء مجتمعه، قال الدكتور عبد الجليل شلبي :"أنت – يا خطيب المسجد – أشد فاعلية في نفوس الجماهير من رجل البوليس الحاكم، ورجل المباحث المستطلع، والوزير الآمر، إنك تقتلع جذور الشر من نفس المجرم وتبعث في نفسه خشية الله وحب الحق والعدل ومعاونة الناس والتخلي عن شيء من حقوقه مرضاة للآخرين، فأنت توفر على

([158]) يوسف: ١٠٨

([159]) فصلت: ٣٣.

([160]) تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٠) .

رجل البوليس والقائم على أمن الدولة جهدا كبيرا وأعمالا شاقة، وإن كانوا لا يشعرون، الناس لا يخافونك، ولكنهم يجلونك ويحبونك إن ميدان عملك هو إصلاح الضمائر

وإيقاظ العواطف النبيلة في نفوس الناس، فعملك هو نفخ الروح في الأجساد، وبث الحياة في الأفراد) [١٦١]

وليعلم الخطيب أن الناس يقدرون عمله، فهم يستمعون لنصحه، ويأتمرون بأمره، وهذا يدل على سمو رسالة الخطيب وعظم منزلته، قال الشيخ على محفوظ: "ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس، وأنفذ كلامه في القلوب، وأشد إثارته للعواطف، والخطيب أمير القوم الذي تتجه نحوه أنظارهم وتحدق به أبصارهم، وتلتف حوله قلوبهم، وتترامى إليه آمالهم، يستلينهم بالقول إذا قسوا، ويستخضعهم به إذا عصوا، ويمتلك نفوسهم بالرغبة تارة وبالرهبة أخرى، وبنفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس، فيقذف بهم الجبال فيدكونها بين يديه، وبلين لهم بالقول فإذا استوهبهم الأموال – بل الأرواح – وهبوها له، فوالله إنها لمكانة سامية، وسلطان نافذ القوة في الأرواح، لا يدانيه نفوذ الأمراء وقوتهم الجبروتية في الأجسام"[١٦٢].

ومما يجعل الخطيب يستمر في أداء رسالته، بكل محبة وتفان أن ينظر في كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما فيهما من قصص الدعاة المحبين لدعوتهم وتضحياتهم فى سبيلها بالنفس والنفيس، ومن ذلك ما

([١٦١]) الخطابة وإعداد الخطيب، د/عبد الجليل شلبي، صـ٤٩٨، بتصرف .

([١٦٢]) فن الخطابة وإعداد الخطيب، لعلى محفوظ صـ٢٩ بتصرف يسير .

قصَّه علينا القرآن الكريم في سورة يس في قصة الرجل الذي دعا قومه إلى تصديق الرسل، وأعلن إيمانه بما جاءوا به، فما كان منهم إلا أن قتلوه، ففاز برضوان الله تعالى وأدخل الجنة، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [١٦٣] . قال ابن عباس رضى اللّه عنهما. "نصح قومه في حياته بقوله: يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ وبعد مماته في قوله" ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [١٦٤].

وقد يقول قائل: إن حب الخطيب للخطابة لن يتأتى له إلاَّ إذا توفرت لديه موهبة الخطابة، وهنا نقول: إن اكتساب الخطيب لموهبة تتحصل له بكثرة المران والممارسة والتدريب؛ لأن الخطيب لا يولد موهوباً وخطيباً مبدعاً، ولابد له من أن يعاني ويكابد حتى يكتسب الخبرة في مجال الخطابة، قال الشيخ على محفوظ: "الخطابة ملكة نفسية لا نوجد دفعة واحدة، بل لا بد- لطالبها من الممارسة والمران كي تنمو مواهبه، وقد قال خالد بن صفوان. إنما اللسان عضو

([١٦٣]) يس: ٢٠ – ٢٧.

([١٦٤]) تفسير ابن كثير،٣ / ٥٦٨.

إذ مرنته مرن، فهو كاليد تخشنها بالممارسة، وكالبدن تقويه برفع الحجر والرجل إذا عودت المشي مشت"[١٦٥].

([١٦٥]) فن الخطابة وإعداد الخطيب، لعلى محفوظ ، صـ ١٧، بتصرف يسير.

ثانياُ: العلم بالكتاب والسنة

إن الخطيب بمثابة المعلم للناس، فهو يعلمهم ما يجهلون، وينبههم إلى ما هم عنه غافلون؛ لأجل ذلك وجب على الخطيب أن يتقن عمله؛ بكثرة الإطلاَع، وسعة الثقافة وجودة الإعداد لما هو بصدد الحديث عنه، أمام جمهوره من المصلين الذين قد يوجد من بينهم من هو واسع الإطلاع كثير الثقافة، ولن يحظى الخطيب باحترام هؤلاء إلا إذ شعروا بتفوقه عليهم من ناحية الثقافة والمعرفة، فيما يعطيهم من معلومات، أو فيما يلقي عليهم من حجج وبراهين.

وأول ما ينبغي على الخطيب تعلمه، أن يتعلم القرآن الكريم فيحفظ بإتقان، وعليه أن يراجع حفظه لما يتلوه من الآيات التي سيلقيها أثناء الخطبة؛ حتى لا يخطئ في حفظها ولا يلحن في تلاوتها؛ لأن الخطأ في كتاب اللّه تعالى يسقط الخطيب من أعين مستمعيه، ولن يَلْتَفِتَوا بعد ذلك إلي ما سيلقيه عليهم من فوائد في بقية خطبه وموعظته.

ومع حفظ الخطيب للقرآن الكريم ينبغي له العودة إلى كتب التفاسير، فهي زاداً له لا يستغني عنه، ينهل من معانيها، وبقطف من ثمارها، وأحسنها في هذا المجال تفسير ابن كثير، فهو وسط بين الإطناب والإيجاز، فإذا أريد الاقتصار على أحد التفاسير فليكن هو، مع الاستفادة من غيره ما أمكن.

إن الخطيب داعية إلى لله عز وجل، والدعوة إلى الله يشترط لها البصيرة، والبصيرة هي العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٦٦]، قال الشيخ السعدي في تفسيره عند هذه الآية:" :يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:﴿ قُلْ ﴾ للناس ﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي: أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه.

ومع هذا فأنا ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين"[١٦٧]، فالبصيرة لا يتحصل عليها الخطيب إلا بالعلم.

وعلى الخطيب أن يحذر من أن يقول على قولاً بغير علم؛ لأن الله تعالى قد جعل القول عليه بغير علم من عمل الشيطان فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [١٦٨]، قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية:" أي كلوا بعض ما في الأرض من أصناف

([١٦٦]) يوسف: ١٠٨.

([١٦٧]) تفسير السعدي صـ ٤٠٦.

([١٦٨]) البقرة: ١٦٨ –١٦٩.

المأكولات التي من جملتها ما حرّمتموه افتراء على الله من الحرث والأنعام أكلا حلالا طيبا.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ أي ولا تتبعوا سيرته فى الإغواء ووسوسته في الأمر بالسوء والفحشاء، فهو عدو لكم بين العداوة، فإذا عرض للإنسان داعي البذل لمعاونة بائس فقير، فهمّت نفسه بالعمل، ثم جاش في صدره خاطر الاقتصاد والتوفير، فليعلم أن هذا من وحي الشيطان. ولا ينخدع لما يسوّله له من إرجاء هذا العطاء ووضعه فى موضع أنفع، أو بذله لفقير أحوج.

ثم بين كيفية عداوته وفنون شره وإفساده فقال: ﴿ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ أي إنما يوسوس الشيطان ويتسلط عليكم كأنه آمر مطاع بأن تفعلوا ما يسوءكم في دنياكم وآخرتكم وأن تجترحوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي ويأمركم أن تقولوا على الله في دينه ما لا تعلمون علم اليقين أنه شرعه لكم من عقائد وشعائر دينية، أو تحليل ما الأصل فيه التحريم، أو تحريم ما الأصل فيه الإباحة، ففى كل ذلك اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان، فإنه الأصل في إفساد العقائد، وتحريف الشرائع.

ومن هذا زعم الرؤساء أن لله وسطاء بينه وبين خلقه، لا يفعل شيئا إلا بوساطتهم، فحولوا قلوب عباده عنه وعن سننه في خلقه، ووجهوها إلى قبور لا تعد ولا تحصى، وإلى عبيد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ويسمون

مثل هذا توسلا: أي تقربا إلى الله، وحاشى أن يتقبّل التقرب إليه بالشرك به، ودعاء غيره معه"[١٦٩].

وبعض الخطباء قد تعرض عليه مسألة أثناء خطبته للجمعة، وما كان محضراً لكلام سيقوله فيها، فيضطر إلى أن يقول على الله بغير علم، لهذا ينبغي للخطيب أن يعلم أن القول على الله بغير علم من أصول المحرمات كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [١٧٠]، وفي هذا المقام يحسن بنا أن يذكر كلام العلامة ابن القيم وفيه تفصيل حول خطورة القل على الله بغير علم؛ فإنه رأس المحرمات التي حرمها الله تعالى، قال رحمه الله:" وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريما وأعظمها إثما، ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي عليها الشرائع والأديان، ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال، فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريمه عارض في وقت دون وقت. قال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا

([١٦٩]) تفسير المراغي ٢/ ٤٢، باختصار.

([١٧٠]) الأعراف: ٣٣.

لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما أحقه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه. وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه. ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثما، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا في مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [١٧١] فكيف بمن نسب إلى أوصافه ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه؟ قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول أحل الله كذا وحرم الله كذا، فيقول الله: كذبت لم أحل هذا ولم أحرم

([١٧١]) النحل: ١١٦

هذا. يعني: التحليل والتحريم بالرأي المجرد بلا برهان من الله ورسوله.

" وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله، يقربه إلى الله ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم، دون العكس، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله فهو أعم من الشرك، والشرك فرد من أفراده، ولهذا كان الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم موجبا لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مبوأة، وهو المنزل اللازم الذي لا يفارقه صاحبه؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم كصريح الكذب عليه؛ لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل.

والقول على الله بلا علم صريح: افتراء الكذب عليه﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [١٧٢]، فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع، وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها، إلا بتضلعه من السنة وكثرة إطلاعه عليها ودوام البحث عنها والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدا، فإن السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس.

([١٧٢]) الأنعام: ٢١ .

ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا تجريد المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والإخلاص وصدق اللجإ إلى الله، والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة والله المستعان"[١٧٣] .

فعلى الخطيب أن يحذر كل الحذر أن يقول لشيء حلال، وليس معه دليل على حله ، أو يقول لشيء حرام وليس معه على حرمته برهان، وليحذر الخطيب أن يصف الله –تبارك وتعالى– بشيء دون برهان أن يسميه باسم دون حجة ولا برهان.

وبعد عناية الخطيب بالقرآن الكريم عليه الاهتمام بالسنة النبوية؛ وذلك أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع الذي لا يستغني الخطيب عنه، قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "سن رسوله اللّه صلى الله عليه وسلم وولاة الأمور بعده سناً، الأخذ بها تصديق لكتاب اللّه، واستعمال لطاعة اللّه، وقوة على الدين، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبعِ غير سبيل المؤمنين ولاه اللّه ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراَ"[١٧٤] .

([١٧٣]) مدارج السالكين، لابن القيم ، (١/ ٣٧٤.

[١٧٤] مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، للسيوطي، صـ٢٤.

ومن خلال هذا القول الكريم يتضح لنا أهمية السنة النبوية في دين الله عزوجل، ومدى حاجة الخطيب إلى معرفتها، والاعتماد عليها في شواهده وأدلته التي يلقيها في خطبة الجمعة.

فعلى الخطيب أن يعيش مع السنة النبوية؛ حتى وبدعم أدلة خطبته بأحاديثها، وبذلك يضفي على خطبته جمالاً وجلالاً.

وعلى الخطيب أن يتحرَّى الصحة لما يذكره من أحاديث، وعليه أن يتجنب الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وفي هذا المجال يمكنه أن يعتمد على الكتب الصحيحة كصحيح البخاري ومسلم، وهناك مختصرات لهذين الكتابين قامت بحذف المكرر وحذف الأسانيد تيسيراً على طلاب العلم، وأهمها: التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدي، وهو مختصر لصحيح البخاري، وكذلك مختصر صحيح مسلم للمنذري.

ومع متون الحديث عليه الإطلاع على شروحها مثل كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري وكتاب المنهاج شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، وغير ذلك كثير مما لا يستغني عنه الداعية الخطيب.

وهناك كتب في السنة النبوية رتبت أبوابها ترتيباً موضوعيا، كرياض الصالحين للإمام النووي، والترغيب والترهيب للحافظ المنذري وهى تسعف الخطيب في توفير الأدلة بين يديه فيما هو بصدد الحديث عنه.

وبعد علمه بالكتاب والسنة عليه أن يطلع على كتب السيرة النبوية؛ لأن السيرة النبوية هي الصورة المثلى لتطبيق الإسلام في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، فقد سألت أم المؤمنين عائشة رضى اللّه عنها عن خلق رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن[١٧٥].

وسيجد الداعية والخطيب في السيرة النبوية علاجاً لكافة المشكلات، وحلاً لكَل المعضلات، مع التعامل مع المواقف! من منطلق الأخلاق العالية التي كان يتصف بها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيتزود الخطيب بزاد وفير من القيم والأخلاق.

وننصح في هذا المقام بقراءة كتاب الإمام ابن القيم زاد المعاد في هدى خير العباد فهو توظيف جيد لأحداث السيرة النبوية، يعتمد فيه المؤلف على التحليل والترجيح والنقد، وكل ذلك مما يخدم الداعية في رسالته، ومن الكتب المعاصرة كتاب السيرة النبوية للصلابي فهو كتاب حاول أن يجمع فيه أحسن ما كتبه أهل السيرة في هذا الباب.

فعلى الخطيب أن يستشعر أن الدعوة إلى الله تعالى هي تعريف الناس بدين الله تعالى، تعريفهم بشرع الله عز وجل، وكل هذا يحتاج إلى دليل، وبرهان من كتاب وسنة، فإذا لم يكن عند الخطيب دليل ولا برهان، وقع في القول على الله بغير علم، فصد عن سبيل الله من حيث ظن أنه يدعو إلى الله –عز وجل– والله –تبارك وتعالى– يقول: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [١٧٦].

([١٧٥]) صحيح مسلم، برقم(١٢٣٣).

([١٧٦]) النحل: ١١٦.

ثالثاً: الإخلاص لله تعالى

من الصفات الأساسية التي ينبغي على الخطيب والداعية أن يتصف بها أن يكون مخلصاً لله تعالى في أقواله وأفعاله وأحواله، قال شيخ الاسلام ابن تيمية:" إنّ إخلاص الدّين هو الّذي لا يقبل الله تعالى سواه، وهو الذي بعث الله به الأوّلين والآخرين من الرّسل، وأنزل به جميع الكتب، واتّفق عليه أئمّة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدّعوة النّبويّة، وهو قطب القرآن الّذي تدور عليه رحاه .[١٧٧]

وقد حثَّ الله تعالى عباده المؤمنين على الإخلاص في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [١٧٨]، قال سيد قطب في ظلاله عند هذه الآية:" وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق، عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، والميل عن الشرك وأهله، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة : ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾، عقيدة خالصة في الضمير، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة، وإنفاق للمال في سبيل الله، وهو الزكاة، فمن حقق هذه القواعد، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب، وكما هو في دين الله على الإطلاق، دين واحد، وعقيدة واحدة، تتوالى بها الرسالات، ويتوافى عليها الرسل، دين لا غموض فيه ولا تعقيد،

([١٧٧]) التحفة العراقية ، لابن تيمية، صـ ٥٨ .

([١٧٨]) البينة: ٥.

وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف، وهي بهذه النصاعة، وبهذه البساطة، وبهذا التيسير[١٧٩].

وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [١٨٠]، قال الشيخ السعدي في تفسيره عند هذه الآية:" أي: أخلص للّه تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد اللّه وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله للّه في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة. فإن اللّه بريء منه، وليس للّه فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء"[١٨١].

([١٧٩]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٨/ ٨٠.

([١٨٠]) الزمر: ٢ - ٣.

([١٨١]) تفسير السعدي، صـ ٧١٧.

ومن الآيات الدالة على الإخلاص قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [١٨٢]، قال الشيخ المراغي في تفسيره عند هذه الآية:" أي هو الحي الذي لا يموت، وما سواه فمنقطع الحياة غير دائمها، لا معبود بحق غيره ولا تصلح الألوهة إلا له، فادعوه مخلصين له الطاعة، ولا تشركوا في عبادته شيئا سواه من وثن أو صنم، ولا تجعلوا له ندّا ولا عدلا.

ثم أمر عباده أن يحمدوه على جزيل نعمه وجليل إحسانه فقال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي احمدوه سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من ملك وإنس وجن، لا الآلهة التي تعبدونها، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن نفع غيرها وضره"[١٨٣] .

ومن الآيات القرآنية الدالة على الإخلاص قوله تعالى:" ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [١٨٤] ، قال الإمام ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية:" قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ ، ما كان موافقًا لشرع الله ﴿ وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله

([١٨٢]) غافر: ٦٥.

([١٨٣]) تفسير المراغي، ٢٤/ ٩٠.

([١٨٤]) الكهف: ١١٠.

عليه وسلم، وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن طاووس قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا. حتى نزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ "(١٨٥) .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت حياته كلّها إخلاصا لله تعالى، وقد تجلّى إخلاصه صلّى الله عليه وسلّم في حياته كلها، ولأهمية الإخلاص فقد كان صلى الله عليه وسلم في دبر كل صلاة يذكر الله تعالى، ومن ضمن ذلك كان يتذكر الإخلاص، فعن عبد الله بن الزّبير– رضي الله عنهما– قال: كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا انصرف من الصّلاة، يقول:« لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، لا إله إلّا الله، مخلصين له الدّين ولو كره الكافرون، أهل النّعمة والفضل والثّناء الحسن، لا إله إلّا الله مخلصين له الدّين ولو كره الكافرون» (١٨٦).

وكان صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه إلى ضرورة اصطحابهم للإخلاص في كل أعمالهم، فعن أبي أمامة الباهليّ– رضي الله عنه– قال: جاء رجل إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذّكر، ما له؟. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا شيء له» . فأعاد ثلاث مرّات. يقول

(١٨٥) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٥.

(١٨٦) صحيح سنن أبي داود، برقم(١٣٣٤).

له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا شيء له» . ثمّ قال: «إنّ الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه"[١٨٧].

وعن زيد بن ثابت– رضي الله عنهما–، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «نضّر الله امرأ سمع مقالتي فبلّغها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه» زاد فيه عليّ بن محمّد «ثلاث لا يغلّ [١٨٨] عليهنّ قلب أمرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنّصح لأئمّة المسلمين ولزوم جماعتهم» [١٨٩].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن من أخلص لله تعالى في كلمة التوحيد ادركته شفاعته صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة– رضي الله عنه– أنّه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد النّاس بشفاعتك يوم القيامة؟. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لّا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد النّاس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلّا الله خالصا من قلبه– أو نفسه–» [١٩٠].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن من قال كلمة التوحيد مخلصاً من قلبه إلا فتحت لها أبواب السماء وحرم الله وجهه عن النار، فعن أبي هريرة–

([١٨٧]) سنن النسائي، برقم(٣١٤٠)، وهو في السلسة الصحيحة للألباني، برقم(٣١٤٠).

([١٨٨]) لا يغلّ: لا يغلّ عليه قلب مؤمن أي لا يكون معها في قلبه غش وزغل ونفاق، ولكن يكون معها الإخلاص في ذات الله، والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تُسْتَصْلَح بها القلوبُ فمن تَمسَّك بها طَهُر قَلْبُه من الخِيانة والدَّغَل والشَّر، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ٣/ ٧١٧.

([١٨٩]) صحيح سنن ابن ماجة، برقم (٢٣٠).

([١٩٠]) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، برقم (٦٠٨٥) .

رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: « ما قال عبد لا إله إلّا الله قطّ مخلصا، إلّا فتحت له أبواب السّماء حتّى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر" [١٩١].

وعن عثمان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إنّي لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقّا من قلبه إلّا حرّم على النّار»، فقال له عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه-: أنا أحدّثك ما هي؟ هي كلمة الإخلاص الّتي أعزّ الله- تبارك وتعالى- بها محمّدا صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، وهي كلمة التّقوى الّتي ألاص عليها[١٩٢] نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم عمّه أبا طالب عند الموت: شهادة أنّ لا إله إلّا الله» [١٩٣].

أمّا الصّحابة رضوان الله عليهم فقد كان الإخلاص رائدهم في كلّ ما يقومون به، فعن سعد بن أبي وقّاص- رضي الله عنه- قال: وأمّا عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السّفينة: «أخلصوا فإنّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئا ههنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجّني من البحر إلّا الإخلاص لا ينجّيني في البرّ غيره. اللهم؛ إنّ لك عليّ عهدا إن أنت عافيتني ممّا أنا فيه أن آتي محمّدا صلّى الله عليه وسلّم حتّى أضع يدي في يده فلأجدنّه عفوّا كريما فجاء فأسلم»[١٩٤].

([١٩١]) سنن الترمذي، برقم (٣٥٩٠) وحسنه، وكذلك محقق جامع الأصول (٤/ ٣٩٢) .

([١٩٢]) ألاص عليها: أي أداره عليها وراوَدَهُ فيها، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير، ٤/ ٥٦٤.

([١٩٣]) مسند أحمد، برقم (٤٤٧)، قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١/ ٣٥٣): إسناده صحيح، وهو في مجمع الزوائد (١/ ١٥) وقال: رجاله ثقات، قال شعيب الأرناؤوط : إسناده قوي.

([١٩٤]) صحيح النسائي، للألباني، برقم (٣٧٩١) .

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت أبا بكر الصّدّيق- رضي الله عنه- على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في هذا اليوم من عام الأوّل، ثمّ استعبر أبو بكر وبكى، ثمّ قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول:« لم تؤتوا شيئا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية، فاسألوا الله العافية»[١٩٥].

وعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: أنّ رجلين اختصما إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسأل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المدّعي البيّنة فلم يكن له بيّنة، فاستحلف المطلوب، فحلف بالله الّذي لا إله إلّا هو، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «إنّك قد فعلت، ولكن غفر لك بإخلاصك قول لا إله إلّا الله»[١٩٦].

([١٩٥]) مسد أحمد، برقم(١٠)، قال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند: صحيح لغيره، وهو في عمل اليوم والليلة، للنسائي، برقم(٨٨٦).

([١٩٦]) مسند الإمام أحمد، برقم(٢٢٨٠)، قال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند: إسناده صحيح.

أقوال أهل العلم في الإخلاص

ولأهل العلم أقوالا متنوعة حول الإخلاص، قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [١٩٧] هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنّ العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتّى يكون خالصا صوابا. الخالص أن يكون لله والصّواب أن يكون على السّنّة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [١٩٨][١٩٩].

وقال أيضاً": ترك العمل لأجل النّاس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص: الخلاص من هذين. وفي رواية عنه: والإخلاص: أن يعافيك الله منهما [٢٠٠].

وقال شهر بن حوشب: «جاء رجل إلى عبادة بن الصّامت، فقال: أنبئني عمّا أسأل عنه، أرأيت رجلا يصلّي يبتغي وجه الله ويحبّ أن يحمد؟» .

فقال عبادة: «ليس له شيء، إنّ الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كلّه لا حاجة لي فيه»[٢٠١].

قال الجنيد– رحمه الله–: «الإخلاص سرّ بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله» [٢٠٢].

([١٩٧]) الملك: ٢.

([١٩٨]) الكهف: ١١٠.

([١٩٩]) مدارج السالكين، لابن القيم، ٢/ ٩٦.

([٢٠٠]) التعريفات، للجرجاني، صـ ١٣.

([٢٠١]) تفسير ابن كثير ١/ ١١٤.

([٢٠٢]) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٩٥.

قال ابن القيّم- رحمه الله تعالى-: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا ينقله ولا ينفعه» [٢٠٣].

ما يستلزمه الإخلاص

ذكر أهل العلم أن الإخلاص يستلزم أموراَ خمسة وهي :

١- الاستمراريّة: حيث إنّ حياة الإنسان عبارة عن تواصل واستمرار، ومواقف الحياة مستمرّة ومتكاملة؛ ولذا لا ينبغي أن يتفكّك الإخلاص أو يتبعثر؛ لأنّه لا يتعلّق بالموقف المعاصر فقط، ولا بالماضي فقط، ولا بالمستقبل فقط، وإنّما هو موقف مستمرّ، ومن ثمّ كانت الاستمراريّة صفة أساسيّة في الإخلاص.

٢- العلم: حيث إنّ الإخلاص يستلزم وعي الإنسان بوجوده في إطار التّعاليم الإسلاميّة، وهذا الوعي لا يمكن أن يتمّ بغير معرفة؛ لأنّه لا يمكن أن يتأتّى عن جهل، وجهل الإنسان لا يمكن أن يؤدّي إلى إخلاص حقيقيّ، ومن ثمّ كان العلم شرطا ضروريّا لتحقيق الإخلاص، هذا إلى جانب ضرورة العلم بما يحقّق الإخلاص.

٣- التدرّج: باعتبار أنّ الإخلاص جهد بشريّ من أجل الوصول إلى كمال الإنسان بوصوله إلى حقيقة العبوديّة والتّحقّق بها، ولذا فإنّ الإنسان يتعثّر وينهض مرارا وتكرارا، بهدف بلوغ المرتبة العالية، إنّ التّجربة صعبة في مواقف حياة الإنسان، ولذا فهو يحتاج إلى التّدرّج، وهذا شرط لكمال الإخلاص.

٤- التّكامل: بمعنى انضواء الشّخص بجميع مكوّناته في أهداف وجوده المستمدّة من الإطار الإسلاميّ للحياة، حتّى يتمكّن من بلوغ أكمل درجة ممكنة

([٢٠٣]) الفوائد، لابن القيم، صـ ٦٧.

من صياغة الذّات بطريقة متكاملة، وذلك عبر محبّة قويّة لله وللحقّ والحقيقة، وللآخرين المخلصين، هذا إلى جانب التّكامل بين النّيّة والفعل.

٥- الأمانة: باعتبارها رعاية لحقّ الله تعالى، وأداء للفرائض والواجبات، وهذا يتطلّب عدم الخيانة وحفظ الحقوق، وهي خير شاهد خارجيّ على الإخلاص، وخاصّة أنّ المنزلقات الّتي يمكن أن تطيح بالأمانة اللّازمة للإخلاص وفيرة، وهذه توفّر حظوظا للنّفس تفسد الإخلاص، ولذا كان لأبدّ من توافر الأمانة لتوافر الإخلاص والتمسّك به.

وخلاصة الأمر أنّ الإخلاص تصفية للعمل والقول والعبادة ممّا يشوبها من رياء ومراءاة أو خداع أو كذب، ويأتي في مراتب عديدة، وهي: طرح العمل وعدم رؤيته، فضلا عن طرح طلب العوض عنه، والخجل من العمل مع بذل الوسع والغاية فيه، مع رؤية التّوفيق في العمل المخلص على أنّه جود من الله تعالى، ثمّ إخلاصه بالخلاص منه، أي جعله خالصا لوجه الله تعالى [٢٠٤].

حقيقة الإخلاص

حقيقة الإخلاص يمكن النظر إليها من زاويتين:

الأولى: من جهة تعلّقه بالعمل، من هذا القبيل نجد أن العمل الصّادر عن الإنسان- أيّا كان- إذا قصد به وجه الله، وظهرت الشّواهد على ذلك، فإنّه يعدّ عملا مخلصا؛ لأنّه خالص من الشّرك، والرّياء والشّهرة؛ لأنّ العمل الإنسانيّ قد يشوبه شيء ما من ذلك، فإذا صفا عن شوبه، وخلص منه سمّي خالصا،

([٢٠٤]) لمزيد من التفاصيل: ينظر: إحياء علوم الدين، للغزالي، ٤/ ٣٧٦، والمنهاج في شعب الإيمان، للحليمي ٣/ ١١٤، والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، صـ ١٥٤.

فالإخلاص ينافي الإشراك، والرّياء، والغشّ، والخداع، والاحتيال، والكذب؛ ولذا قد نجد بينه وبين الصّدق قرابة معنى، وكذلك يمتدّ إلى معنى الصّراحة، ويلتقي بمفهوم الوضوح، والأمانة والصّفاء.

وإذا كانت كلّ المعاني السّابقة من رياء وغشّ وخداع، واحتيال، وكذب، تمتدّ إلى الشّرك بمعنى ما، فإنّ من الشّرك ما هو خفيّ وما هو جليّ، وكذا الإخلاص، وكلاهما يرد على قلب المسلم ويكون ذلك في المقصود والنّيّة، ولذا يأتي الفعل على قدر النّيّة، إمّا مخلصا أو غير مخلص، فمن كان قصده من عمله الرّياء، فهو غير مخلص، ومن كان غرضه التّقرّب إلى الله تعالى فهو مخلص، إلّا أنّ العادة جرت بتخصيص الإخلاص على قصد التّقرّب إلى الله تعالى وتخليصه من جميع ما يشوبه.

وكلّ عمل باعثه التّقرّب إلى الله تعالى، وانضاف إليه خطرة بشريّة حتّى صار العمل موسوما بها، وأخفّ من جهتها من حيث الإتيان، فقد خرج العمل عن الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى، وبالتّالي خرج من أن يكون محقّقا لإنسانيّة الإنسان، وكما يقول الإمام الغزاليّ: «كلّ حظّ من حظوظ الدّنيا تستريح إليه النّفس، ويميل إليه القلب، قلّ أم كثر، إذا تطرّق إلى العمل تكدّر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه، منغمس في شهواته، قلّما ينفكّ فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس.

فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزّة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشّوائب، بل الخالص هو الّذي لا باعث له إلّا طلب القرب من الله تعالى» [٢٠٥].

فحقيقته الإخلاص المطلوبة من الخطيب أنْ يَقْصِد بد دعوتهَ وعمله وجه الله –عز وجل– ولا يَبْتغِي من وراء دعوته جزاء ولا شُكورًا من أحد من الخلق.

([٢٠٥]) إحياء علوم الدين، للغزالي، ٤/ ٣٦٨، والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، صـ١٥٤ .

رابعاً: عناية الخطيب بفن الإلقاء

خطبة الجمعة من أبرز مجالات فن الإلقاء، وفن الإلقاء هو فن مخاطبة الجماهير والتأثير فيهم، وهذا الفن قد كتبت فيه مؤلفات كثيرة في القديم والحديث.

قال الشيخ محمد أبو زهرة:" كان قدماء اليونان يعنون عناية خاصة بتربية الصوت، ويجعلونها فناً قائماً بذاته، له أساتذة قد خصصوا لدراسته، يربون الشبيبه على السيطرة على أصواتهم والغلب عليها، ليجعلوا رناتها ملائمة للمقامات البيانية، وليجعلوا من المران دواء للعيون الصوتية" [٢٠٦].

وفي هذا العصر اهتم الباحثون بفن الإلقاء كثيرا، فألفوا فيه المؤلفات الكثيرة، وأنشأوا المعاهد التي تقيم البرامج التدريبية والدورات للراغبين في تطوير مهاراتهم في هذا الجانب، وتبقى الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، فسنأخذ من هذا الفن ما يتوافق مع ديننا وسنضع ما يتعارض معه.

وفي هذ العجالة سوف نتناول أهم مهارات الإلقاء التي يحتاجها الخطب من أجل التأثير في جمهوره من المصلين الذين يحضرون بين يديه لاستماع خطبة الجمعة في كل أسبوع:

١ ـ على الخطيب أن يعتني بنبرات صوته

لما كان صوت الخطيب هو الأداة المعبرة عمَّا في نفسه من معلومات ومعارف، وبه يعرض على الناس نتاج فكره وعلمه؛ لهذا وجب على الخطيب

([٢٠٦]) الخطابة وأصولها، لمحمد أبي زهرة، صـ٥٢.

أن يولي صوته من الاهتمام والعناية قدراً لا يقل عن اهتمامه بالإعداد الجيد لموضوعه، وحسن التعبير عنه، فب كلام بسيط لكن الخطيب بحسن توظيفه لصوته، يجعل من هذا الكلام يلتفت الناس إليه ويتفاعلون معه؛ وذلك لأن الخطيب الناجح وضف نبرات صوته، ولم يجعل كلامه على وتيرة واحدة، قال عبد الرحمن خليف:" إن الأشياء البسيطة كثيراً ما تُعْرَض فى أغلفة أو ظروف ثم اختيارها من مادة جيدة، ثم تصفف تلك الأشياء فيها بعناية وذوق، فكان لتلك الأغلفة والظروف من الجاذبية ما يجعل قيمة الشيء المعروض فيها أرفع مما لو لم يُعْرَض فيها، أو لم يكن وضعه فيها بتلك العناية، وبذلك الذوقَ.

وتنطبق هذه الحقيقة على الكلام نفسه، فكم من الكلام ما كان ذا معنى مألوف أو حكم معروف، ولكن المتكلم به يكسوه من صفاء صوته ورونق نبراته ما يأخذ بالسامع، وكأنه يسمع شيئاً جديداً لا عهد له به من قبل.

إن النغم الرتيب في الإلقاء شبيه بصوت الماء النازل من حنفية على مستوى واحد من النغم الثابت، إن مثل هذا الإلقاء قلَّما يشد انتباه السامعين إليه، بل إنه مجلبة للتثاؤب والنوم، أو الضجر والسآمة، سواء أكان النغم لطيفا أم عنيفا النغم لطيفاً أم عنيفا " [٢٠٧].

ومن هنا ندرك السِّر في أنك قد تستمع إلى خطبة من خطيب فتتأثر به، وتتفاعل معه، وتستمع إلى خطيب آخر فلا يأسرك أسلوبه ولا تركز على خطبته؛ والسبب في ذلك هو أن الأول وظف صوته ونبراته بحسب الحال

([٢٠٧]) كيف تكون خطيبا؟، لعبد الرحمن خليف، صـ٥٣، باختصار بتصرف يسير.

والمقام، والآخر القاها كيفما اتفق ولم يهتم بصوته ونبراته أثناء إلقائه لخطبته، جودتها جاءت من حسن إلقائها لا من حسن تنسيقها وترتيبها.

وقد اعتنى السابقون بتوظيف الصوت في الخطب والكلام، واعتنوا بفقرات الكلام؛ لأن ذلك يساعد على فهم الكلام قال الأحنف بن قَيس:" ما رأيت رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حق المقام، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً يحول بينه وبين تبيعته عن الألفاظ"[٢٠٨] .

ولكي يكون صوت الخطيب عاملاً مساعداً على نجاح خطبته، فإن عليه أن يراعي عدة أمور نلخصها فيما سيأتي:

- على الخطيب أن ينوع بين نبرات صوته، بحيث تتلاءم تلك النبرات مع موضوع الكلام، فنبرة صوت الخطيب وهو يتحدث في الترغيب تختلف عن نبرة صوته في الترهيب، ونيرة صوته وهو يتحدث عن وصف الجنة يختلف عن نبرة صوته وهو يتحدث عن وصف النار.... الخ.
- أن تتناسب نبرة صوت الخطيب مع مكان الخطبة، من حيث سعة المكان وضيقه، ومن حيث العدد كثرةً وقلة، ومن حيث توفر مكبرات الصوت من عدمها، فلا ترتفع نبرات صوته، حتى يصبح صياحاً، ولا تنخفض حتى يكون همساً.

([٢٠٨]) الخطابة وأصولها، ، لمحمد أبي زهرة صـ ١٠٨.

- أن تكون نبرات صوت الخطيب في بداية خطبته بنبرات معتدلة مائلة إلى الانخفاض، ثم ترتفع شيئاً فشيئاً، وتعلوا وتنخفض وفق موضوع الكلام وسياقاته، وأن يكون هناك تناسب بين نبرات صوت الخطيب وما تستغرقه الخطبة من وقت، حتى لا يصاب الخطيب بالإعياء والتعب قبل نهاية الخطبة فيضعف أثر خطبته، وتفقد أثرها.

فعلى الخطيب مراعاة هذه الفقرات فإذا لم يراعيها، وجاءت كلمات خطبته بنبرة واحدة رتيبة لا تتغير ولا تتبدل، كان ذلك مبعثاً لضجر الناس سأمهم وانصرافم عنه وعن خطبته.

ب ـ على الخطيب أن يعتني بإشارات وحركات جسده

أكد العلماء على أهمية الإشارات والحركات في مجال الخطابة، قال الشيخ على محفوظ: "الإشارة الخطابية حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه ورأسه وجوارحه من شأنها تأييد الكلام الذي يتفوه به، وحسنها من تمام حسن البيان باللسان... ولها في الخطابة شأن عظيم؛ لأنها تشارك النطق في نقل الفكر متخذة البصر لها سبيلاً، فهي اللغة التي يفهمها كل إنسان، وما تحدثه من التأثير لا تأتي بمثله لغات العالم، ولا يكاد صاحب حديث يستغني عنها" [٢٠٩].

وقد حفظت لنا السنة النبوية الشريفة كثيراً من الأحاديث التي استخدم فيها النبي صلى الله عليه وسلم الإشارات في مواعظة وخطبه، ومن ذلك على سبيل المثل:

([٢٠٩]) فن الخطابة وإعداد الخطيب، لعلى محفوظ، صـ٦٧، بتصرف يسير.

- فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، ثم شبك بين أصابعه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا إذ جاء رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجهه فقال: اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان نبيه ما شاء" (٢١٠) .
- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى"(٢١١).
- كان صلى الله عليه وسلم ينفعل أحيانا في الموطن التي تقتضي الانفعال فيها، فيرتفع صوته وتكثر حركاته، فعن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم مساكم" ويقول بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ويقول:" أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وكان يقول من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فعلي وإلي" (٢١٢).

وقد وضع العلماء عدداً من الضوابط لاستعمال الحركات والإشارات، نوجزها فيما يلي:

---

(٢١٠) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، برقم(٥٥٦٧).

(٢١١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، برقم(٥٥٤٦).

(٢١٢) صحيح ابن ماجة، برقم (٤٤).

١- أن تتوافق الحركات مع المعنى، وتنسجم مع السياق، وإلا كانت ضارَّة غير نافعة، فلا يصح أن يتحدث الخطيب عن السماء و يده تشير إلى الأرض.

٢- أن تتزامن الحركة مع الكلمة التي تستخدم لأجلها أو تسبقها بقليل، فإن تأخرت عنها ضاعت فائدتها.

٣- أن تتناسب الحركة مع طبيعة الكلام الذي تستعمل فيه، ففى مجال الخطب الحماسة وغيرها من مثيرات العواطف تزيد الحركات، وفى غير ذلك تقل.

٤- أن لا تتكرر الحركات، فان في تكرارها ما يدعوا إلى السأم والملل، وما يوهن موقف الخطيب ويضعف تأثيره.

٥. - ألا يكثر الخطيب من الإشارات والحركات بصورة تلفت النظر، فإن ذلك يفقد الخطبة أثرها، ويذهب بسمت الخطيب ومهابته[٢١٣] .

ومن أجمل من رأيت في عصرنا ممن وظَّف حركاته واشارات جسده في مجال الخطابة والتدريس شيخنا العلامة الشيخ عبد المجيد الزنداني رحمة الله عليه، فقد كانت حركات يده واشارات جسده تتوافق مع الكلام الذي يلقيه بغير تكلف، وكان لهذه لإشارات أعظم الأثر في احداث التأثير في نفوس من يستمع إليه ويتابعه.

وعن نفسي أحاول أن أوظف الإشارات والحركات في الخطب والدروس، فأتوفَّق أحياناً وأخفق في أحيان أخرى! والإجادة ذلك يحتاج إلى وقت طويل ودربة متواصلة.

([٢١٣]) الخطابة وأصولها، لمحمد أبي زهرة، صـ١٢٢، وفن الخطابة، لعلي محفوظ، صـ٦٧.

خامسا: الرحمة بالمدعوين

الرحمة من الصفات الأساسية للداعية والخطيب؛ وبالرحمة يُقبل الناس على الداعية والخطيب، وبالغلظة والفضاضة ينصرفون عنه، وقد امتن الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عليه بالرحمة التي فطره عليها فقال الله عنه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [٢١٤]، قال سيد قطب في ظلاله، عند هذه الآية:" فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم ؛ فجعلته – صلى الله عليه وسلم – رحيماً بهم ليناً معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ولا تجمعت حوله المشاعر .

فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء، وهكذا كان قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم . وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه؛ نتيجة لما أفاض عليه – صلى الله عليه وسلم – من نفسه الكبيرة الرحيبة"[٢١٥].

([٢١٤]) آل عمران: ١٥٩.

([٢١٥]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٤٧٧.

وقد كان رسل الله صلى الله عليه وسلم أرحم الخلق، كيف لا وقد وصفه الله تعالى بقوله": ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢١٦]، قال الشيخ السعدي في تفسيره عند هذه الآية:" يمتن الله تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو صلى الله عليه وسلم في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم؛

ولهذا كان حقه مقدما على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره"[٢١٧].

وهذه الرأفة والرحمة جعلهما الله في قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم أمر ملائكته بشق صدر النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أبيّ بن كعب– رضي الله عنه– أنّه قال: إنّ أبا هريرة كان حريصا على أن يسأل رسول الله صلّى الله

([٢١٦]) التوبة: ١٢٨.

([٢١٧]) تفسير السعدي، صـ ٣٥٦.

عليه وسلّم عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله ما أوّل ما رأيت في أمر النّبوّة؟ فاستوى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالسا وقال:« لقد سألت أبا هريرة، إنّي لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قطّ وأرواح لم أجدها من خلق قطّ، وثياب لم أرها على أحد قطّ، فأقبلا إليّ يمشيان حتّى أخذ كلّ واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسّا فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه. فأضجعاني بلا قصر ولا هصر[٢١٨]، وقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها، فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغلّ والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثمّ نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرّأفة والرّحمة، فإذا مثل الّذي أخرج يشبه الفضّة، ثمّ هزّ إبهام رجلي اليمنى فقال: اغد واسلم، فرجعت بها أغدو رقّة على الصّغير ورحمة للكبير» [٢١٩].

الرحمة المهداة

أرسل الله تعالى نبينا محمّدا صلّى الله عليه وسلّم رحمة للخلائق عامّة إنسهم وجنّهم مؤمنهم وكافرهم، فمن قبل هذه الرّحمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدها خسر الدّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [٢٢٠]، قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: «كان محمّد صلّى الله عليه وسلّم

([٢١٨]) بلا قصر ولا هصر: أي بلا عنف ولا ضغط.

([٢١٩]) مسند أحمد، برقم(٢١٢٩٦)، قال شعيب في تحقيقه للمسند: إسناده ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢): رواه عبد الله (يعني ابن أحمد عن أبيه) ورجاله ثقات وثقهم ابن حبان.

([٢٢٠]) الأنبياء: ١٠٧ .

رحمة لجميع النّاس فمن تبعه كان له رحمة في الدّنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي ممّا كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف» [٢٢١] .

قال القاضي عياض في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢٢٢]، أي: لجميع الخلق، للمؤمن رحمة بالهداية ورحمة، للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب [٢٢٣].

ومن أسمائه أنه نبي الرحمة، فعن أبي موسى الأشعريّ- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسمّي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمّد، وأحمد، والمقفّى[٢٢٤] والحاشر، ونبيّ التّوبة، ونبيّ الرّحمة» [٢٢٥].

وقد كانت حياة نبينا صلى الله عليه وسلم مليئة بمواقف الرحمة بأمته، في سائر أحوالهم، فكانت رحمته ظاهرة بالمدعوين، ورغم كل ما أصابه منهم إلا أنه لم يدعو عليهم بالهلاك وبنزول العذاب، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال:« إنّي لم أبعث لعّانا، وإنّما بعثت رحمة» [٢٢٦].

([٢٢١]) تفسير الطبري ١٧/ ٨٣، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٥٠، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢١٢).

([٢٢٢]) الأنبياء: ١٠٧.

([٢٢٣]) الشفا، للقاضي عياض، ١/ ٥٧ .

([٢٢٤]) المقفى: هو المولي الذاهب، يعني أنه آخر الأنبياء المتبع لهم. فإذا قفى فلا نبي بعده، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير ٤/ ٩٤.

([٢٢٥]) صحيح مسلم، برقم (٢٣٥٥) .

([٢٢٦]) صحيح مسلم، برقم (٢٥٩٩) .

وعنه- رضي الله عنه-: قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: « يا أيّها النّاس إنّما أنا رحمة مهداة» [٢٢٧].

وعن سلمان- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « ... أيّما رجل من أمّتي سببته سبّة أو لعنته لعنة في غضبي فإنّما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنّما بعثني رحمة للعالمين، فأجعلها عليهم صلاة يوم القيامة» [٢٢٨].

وعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- زوج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّها قالت للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟. قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت. وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثمّ قال: يا محمّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النّبيّ صلّى الله عليه

([٢٢٧]) مستدرك الحاكم (١/ ٣٥) واللفظ له وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح. قلت: ولفظ الحديث عندهم: «إنما بعثت رحمة مهداة»، مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٧).

([٢٢٨]) سنن أبي داود، برقم (٤٦٥٩) واللفظ له، والحديث أصله في مسلم، برقم (٢٦٠١).

وسلّم: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا»[٢٢٩].

ومن أجمل مواقف رحمته بالمدعويين ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمي قال بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت وا ثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال:" إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن"[٢٣٠].

وعن أبي هريرة أن أعرابيا دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه و سلم جالس فصلى قال ابن عبدة ركعتين ثم قال اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا فقال النبي صلى الله عليه و سلم لقد تحجرت واسعا ثم لم يلبث أن بال في ناحية المسجد فأسرع الناس إليه فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال:" إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين صبوا عليه سجلا من ماء أو قال ذنوبا من ماء"[٢٣١].

فعلى الداعية والخطيب أن يقتدي برسول الله في هذا الجانب، فيرحم الناس الذين يدعوهم إلى الله تعالى.

([٢٢٩]) صحيح البخاري، برقم (٣٢٣١) واللفظ له. وهو في صحيح مسلم، برقم (١٧٩٥).

([٢٣٠]) صحيح مسلم، برقم(٨٣٦).

([٢٣١]) صحيح أبي داود، برقم(٣٦٦)، واللفظ له، وأصل الحديث في صحيح البخاري، برقم (٢١٣).

الرحمة بالأطفال

على الداعية والخطيب أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في رحمته بالأطفال، فيتلطف معهم ويحسن إليهم؛ فهم رجال المستقبل، وبهم ستبنى الأمم، وكان نبينا محمد أرحم الخلق بالأطفال، فكان صلى الله عليه وسلم أحياناً يتجوز في صلاته فيخففها؛ رحمة بالأطفال الذين يسمع بكاءهم أثناء الصلاة، فعن أبي قتادة- رضي الله عنه- أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي لأقوم في الصّلاة أريد أن أطوّل فيها. فأسمع بكاء الصّبيّ فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشقّ على أمّه» [٢٣٢].

ومن رحمته بالأطفال أنه كان يحمل بعضهم أثناء صلاته، ويجلسهم في بعض الأحيان على فخذه، فعن أبي قتادة- رضي الله عنه- قال: خرج علينا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلّى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها) [٢٣٣].

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن بن عليّ على فخذه الآخر، ثمّ يضمّهما، ثمّ يقول: «اللهمّ ارحمهما فإنّي أرحمهما» [٢٣٤].

وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابي الذي استغرب من حمة النبي صلى الله عليه وسلم بالأطفال وتقبله لهم، فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: جاء أعرابيّ إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: تقبّلون الصّبيان

---

(٢٣٢) صحيح البخاري، برقم (٧٠٧) واللفظ له، وهو في صحيح مسلم، برقم (٤٧٠).

(٢٣٣) صحيح البخاري، برقم (٥٩٩٦) واللفظ له، وهو في صحيح مسلم، برقم (٥٤٣).

(٢٣٤) صحيح البخاري، برقم (٦٠٠٣) .

فما نقبّلهم، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرّحمة» [٢٣٥] .

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: قبّل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس التّميميّ جالسا، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ قال: «من لا يرحم لا يرحم»[٢٣٦].

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: سمعت أبا القاسم صلّى الله عليه وسلّم يقول: «لا تنزع الرّحمة إلّا من شقيّ»[٢٣٧].

وعن جرير بن عبد الله– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا يرحم الله من لا يرحم النّاس»[٢٣٨].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:« ليس منّا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا» [٢٣٩].

وعن ابن مسعود– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:« لن تؤمنوا حتّى ترحموا» . قالوا: كلّنا رحيم يا رسول الله، قال: «إنّه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنّها رحمة النّاس، رحمة العامّة» [٢٤٠].

([٢٣٥]) صحيح البخاري، برقم (٥٩٩٨) واللفظ له، وهو في صحيح مسلم، برقم (٢٣١٧) .

([٢٣٦]) صحيح البخاري، برقم (٥٩٩٧).

([٢٣٧]) سنن الترمذي، برقم (١٩٢٣) وقال: حديث حسن.

([٢٣٨]) صحيح البخاري، برقم (٧٣٧٦) واللفظ له، وهو في صحيح مسلم، برقم(٢٣١٩) .

([٢٣٩]) سنن الترمذي، برقم (١٩٢٠) وقال: حسن صحيح.

وكان صلى الله عليه وسلم أحيانا يبكي على من يموت من أطفال المسلمين، فعن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- قال «أرسلت ابنة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليه: إنّ ابنا لي قبض، فأتنا. فأرسل يقرأ السّلام ويقول: «إنّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلّ عنده بأجل مسمّى. فلتصبر ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينّها. فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصّبيّ ونفسه تتقعقع[٢٤١] قال حسبته أنّه قال: كأنّها شنّ [٢٤٢] ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال:« هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنّما يرحم الله من عباده الرّحماء»[٢٤٣].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «دخلنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أبي سيف القين [٢٤٤] ، وكان ظئرا [٢٤٥] لإبراهيم عليه السّلام. فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إبراهيم فقبّله وشمّه، ثمّ دخلنا عليه بعد ذلك- وإبراهيم يجود بنفسه- فجعلت عينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تذرفان، فقال له عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه-: وأنت يا رسول الله؟ فقال: « يا ابن عوف إنّها رحمة"، ثمّ أتبعها بأخرى، فقال صلّى الله عليه

---

(٢٤٠) صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، برقم(٢٢٥٣).

(٢٤١) ونفسه تتقعقع: أَيْ تَضْطَرب وَتَتَحَرَّكُ. أَرَادَ: كُلَّمَا صَارَ إِلَى حالٍ لَمْ يَلْبَث أَنْ يَنْتَقِل إِلَى أُخْرَى تُقَرِبه مِنَ الْمَوْتِ، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ٤/ ٨٨.

(٢٤٢) الشن: القربة القديمة.

(٢٤٣) صحيح البخاري، برقم (١٢٨٤).

(٢٤٤) القين: الحداد. ويطلق على كل صانع.

(٢٤٥) ظئرا لإبراهيم: الظئر: المُرْضِعَةُ غَيرَ ولَدها، ويقَعُ عَلَى الذَّكَر والأُنْثَى، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (٣/ ١٥٤).

وسلّم:« إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يرضى ربّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[٢٤٦].

وكان صلى الله عليه وسلم يقدر احتياجات الشباب من أمته رحمة منه بهم، فعن مالك بن الحويرث– رضي الله عنه– قال: أتينا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونحن شببة [٢٤٧] متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظنّ أنّا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمّن تركنا في أهلنا فأخبرناه، وكان رقيقا رحيما، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم، ومروهم، وصلّوا كما رأيتموني أصلّي، وإذا حضرت الصّلاة فليؤذّن لكم أحدكم، ثمّ ليؤمّكم أكبركم» [٢٤٨].

الرحمة بعموم المسلمين

على الداعية والخطيب أن يكون رحيماً بجميع المسلمين، كبارهم وصغارهم، فيتفاعل مع أفراحهم وأتراحهم، وقدوته في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يبكي على من يموت من أمته ويحضر جنازاتهم ويخلص الدعاء لهم بالرحمة والمغفرة، فعن عبد الله بن عمر– رضي الله عنهما– قال: «اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعوده مع عبد الرّحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن مسعود– رضي الله عنهم– فلمّا دخل عليه فوجده في غاشية [٢٤٩] أهله، فقال:

([٢٤٦]) صحيح البخاري، برقم (١٣٠٣) ، وهو في صحيح ومسلم، برقم (٢٣١٥).

([٢٤٧]) شببة: جمع شَاب، الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، (٣/ ٣٢٣).

([٢٤٨]) صحيح البخاري، برقم (٦٠٠٨).

([٢٤٩]) غاشية أهله: القَوْمَ الحُضُور عِنْدَهُ الَّذِينَ يَغْشَوْنَه للخِدْمة والزِّيارة، أَيْ جَمَاعَةٌ غَاشِيَة، أَوْ مَا يَتَغَشَّاه مِنْ كَرْب الْوَجَع الَّذِي بِهِ، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٣/ ٣٧٠.

قد قضى[٢٥٠] ؟ قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا رأى القوم بكاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بكوا، فقال:« ألا تسمعون؟ إنّ الله لا يعذّب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذّب بهذا- وأشار إلى لسانه- أو يرحم. وإنّ الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه» . وكان عمر رضي الله عنه- يضرب فيه بالعصا، ويرمي بالحجارة ويحثي بالتّراب [٢٥١].

وعن عوف بن مالك الأشجعيّ- رضي الله عنه- قال: صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللهمّ اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسّع مدخله، واغسله بالماء والثّلج والبرد، ونقّه من الخطايا كما نقّيت الثّوب الأبيض من الدّنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنّة، وأعذه من عذاب القبر (أو من عذاب النّار) ». قال: حتّى تمنّيت أن أكون أنا ذلك الميّت [٢٥٢].

وكان صلى الله عليه وسلم أحيانا يخرج إلى مقبرة بقيع الغرقد التي دفن فيها أصحابه من أجل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، فعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- قالت: ألا أحدّثكم عنّي وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قلنا: بلى. قالت: لمّا كانت ليلتي الّتي كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف

([٢٥٠]) قد قضى: أي هل قضى نحبه ومات؟.

([٢٥١]) صحيح البخاري، برقم (١٣٠٤).

([٢٥٢]) صحيح البخاري، برقم (٥٩٩٩).

إزاره على فراشه، فاضطجع. فلم يلبث إلّا ريثما ظنّ أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدا، وانتعل رويدا، وفتح الباب فخرج، ثمّ أجافه [٢٥٣] رويدا.

فجعلت درعي في رأسي، واختمرت وتقنّعت إزاري[٢٥٤]، ثمّ انطلقت على إثره، حتّى جاء البقيع فقام، فأطال القيام ثمّ رفع يديه ثلاث مرّات ثمّ انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت. فهرول فهرولت.

فأحضر فأحضرت[٢٥٥]، فسبقته فدخلت. فليس إلّا أن اضطجعت فدخل، فقال: «مالك؟ يا عائش حشيا رابية»[٢٥٦]، قالت: قلت: لا شيء، قال:« لتخبريني أو ليخبرنّي اللّطيف الخبير»، قالت: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، فأخبرته. قال: «فأنت السّواد الّذي رأيت أمامي؟»، قلت: نعم، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني. ثمّ قال: «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟»، قالت: مهما يكتم النّاس يعلمه الله. ثمّ قال: «فإنّ جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك [٢٥٧] ، فأجبته، فأخفيته منك. أو لم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إنّ ربّك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم» . قالت: قلت: كيف أقول لهم؟ يا رسول الله. قال:« قولي:

([٢٥٣]) أجافه: أغلقه.

([٢٥٤]) تقنعت إزاري: لبست إزاري.

([٢٥٥]) فأحضر فأحضرت: أي فعدا فعدوت.

([٢٥٦]) يعني وقع عليك الحشا وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره. ورابية: أي مرتفعة البطن.

([٢٥٧]) فأخفاه منك: أي الصوت.

السّلام على أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين. وإنّا إن شاء الله بكم للاحقون» [٢٥٨].

سعة رحمة الله تعالى

ومما يتعلق بصفة الرحمة أنه يجب على الداعية والخطيب أن يبن للناس في خطبه ودروسه سعة رحمة الله تعالى، وأسوته في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان صلى الله عليه وسلم يبن لأمته مقدار سعة رحمة الله تعالى؛ حتى يرغبوا فيها ويعملوا أعمالاً صالحة تؤهليهم لنيل رحمة الله تعالى، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول:« جعل الله الرّحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق؛ حتّى ترفع الدّابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[٢٥٩].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي تغلب غضبي» [٢٦٠].

وعن سلمان الفارسيّ- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله خلق يوم خلق السّماوات والأرض مائة رحمة، كلّ رحمة طباق ما بين السّماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على

([٢٥٨]) صحيح مسلم، برقم (٩٧٤) .

([٢٥٩]) صحيح مسلم، برقم (٢٧٥٢) .

([٢٦٠]) صحيح البخاري، برقم (٧٤٠٤).

ولدها والوحش والطّير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرّحمة» [٢٦١] .

وعن أبي سعيد الخدريّ– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو تعلمون قدر رحمة الله لا تّكلتم» . أحسبه قال: عليها [٢٦٢].

وعن أبي سعيد الخدري– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يدخل الله أهل الجنّة الجنّة، يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النّار النّار، ثمّ يقول: انظروا، من وجدتم في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون منها حمما[٢٦٣] قد امتحشوا [٢٦٤]، فيلقون في نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبّة إلى جانب السّيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية» [٢٦٥].

وعن عمر بن الخطّاب– رضي الله عنه– قال: قدم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم سبي فإذا امرأة من السّبي تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيّا في السّبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أترون هذه طارحة ولدها في النّار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» [٢٦٦].

([٢٦١]) صحيح مسلم، برقم (٢٧٥٣) .

([٢٦٢]) صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني، برقم(٥٢٦٠)

([٢٦٣]) حمما: فحما

([٢٦٤]) امتحشوا: احترقوا.

([٢٦٥]) صحيح مسلم، برقم (١٨٤).

([٢٦٦]) صحيح البخاري، برقم (٦٣٦١).

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذّئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنّما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنّما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى. فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: آتوني بالسّكّين أشقّه بينهما. فقالت الصّغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصّغرى» [٢٦٧].

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: قام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابيّ وهو في الصّلاة: اللهمّ ارحمني ومحمّدا ولا ترحم معنا أحدا. فلمّا سلّم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال للأعرابيّ:« لقد حجّرت واسعا» يريد رحمة الله)[٢٦٨].

وعن أبي موسى الأشعري– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: « إنّ هذه الأمّة مرحومة جعل الله عذابها بينها، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كلّ امرئ منهم رجل من أهل الأديان، فقال: هذا يكون فداءك من النّار»[٢٦٩].

وعن أبي سعيد الخدريّ– رضي الله عنه– عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذكر رجلا فيمن كان سلف– أو قبلكم– آتاه الله مالا وولدا، يعني أعطاه. قال: فلمّا حضر، قال لبنيه: أيّ أب كنت لكم؟. قالوا: خير أب. قال: فإنّه لم يبتئر عند الله خيرا» . فسّرها قتادة: لم يدّخر. «وإن يقدم على الله يعذّبه. فانظروا، فإذا

([٢٦٧]) صحيح البخاري، برقم (٣٤٢٧)، و صحيح مسلم، برقم (١٧٢٠).

([٢٦٨]) صحيح البخاري، برقم (٦٠١٠).

([٢٦٩]) سنن ابن ماجة، برقم (٤٢٩٢)، وهو في السلسلة الصحيح للألباني، برقم(الصحيحة (٩٥٩ و ١٣٨١).

متّ فأحرقوني، حتّى إذا صرت فحما فاسحقوني. أو قال فاسهكوني[٢٧٠] – ثمّ إذا كان ريح عاصف فأذروني فيها، فأخذ مواثيقهم على ذلك وربّي. ففعلوا. فقال الله: كن، فإذا رجل قائم، ثمّ قال: أي عبدي، ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك. أو فرق منك [٢٧١] ، فما تلافاه أن رحمه الله» [٢٧٢] .

وعن أنس بن مالك– رضي الله عنه– قال: إنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم دخل نخلا لبني النجّار، فسمع صوتا ففزع. فقال: «من أصحاب هذه القبور؟» . قالوا: يا رسول الله، ناس ماتوا في الجاهلية. فقال: «تعوّذوا بالله من عذاب النّار، ومن فتنة الدّجّال» . قالوا: وممّ ذاك يا رسول الله؟. قال: «إنّ المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك فيقول له: ما كنت تعبد؟ فإن الله هداه، قال: كنت أعبد الله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرّجل؟، فيقول: هو عبد الله ورسوله، فما يسأل عن شيء غيرها. فينطلق به إلى بيت كان له في النّار، فيقال له: هذا بيتك كان لك في النّار، ولكنّ الله عصمك ورحمك، فأبدلك به بيتا في الجنّة، فيقول: دعوني حتّى أذهب فأبشّر أهلي، فيقال له: اسكن، وإنّ الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهره، فيقول له: ما كنت تعبد؟، فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت، فيقال له: فما كنت تقول في هذا الرّجل؟، فيقول: كنت أقول ما يقول النّاس، فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثّقلين»[٢٧٣].

---

(٢٧٠) فاسهكوني: أي اسحقوني، وقيل: هو دون السّحق.

(٢٧١) فرق منك: أي خوف منك.

(٢٧٢) صحيح البخاري، برقم (٦٤٨١) واللفظ له، وصحيح مسلم، برقم (٢٧٥٧).

(٢٧٣) صحيح سنن أبي داود، للألباني، برقم (٣٩٧٧).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:« تحاجّت الجنّة والنّار، فقالت النّا: أوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين. وقالت الجنّة: ما لي لا يدخلني إلّا ضعفاء النّاس وسقطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنّار: إنّما أنت عذاب أعذّب بك من أشاء من عبادي. ولكلّ واحدة منهما ملؤها. فأمّا النّار فلا تمتلأ حتّى يضع رجله فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلأ ويزوى بعضها إلى بعض. ولا يظلم الله- عزّ وجلّ- من خلقه أحدا. وأمّا الجنّة فإنّ الله عزّ وجلّ ينشأ لها خلقا»[٢٧٤].

وعن زيد بن خالد الجهنيّ- رضي الله عنه- قال: صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاة الصّبح بالحديبية في إثر السّماء كانت من اللّيل، فلمّا انصرف أقبل على النّاس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربّكم؟» . قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأمّا من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا من قال: مطرنا بنوء «٥» كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب»[٢٧٥].

الرحمة بالحيوان

كما أن على الخطيب أن يبن للناس في دروسه وخطبة أن يرحموا الحيوان؛ فإنه له نفس وهو يحس ويتألم، والناس لا يشعرون به، وأسوتهم في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كانت رحمته صلى الله عليه وسلم تتجاوز بني الإنسان لتشمل حتى عالم الحيوان فعن شدّاد بن أوس- رضي الله عنه- أنّه

([٢٧٤]) صحيح البخاري، برقم (٤٨٥٠) واللفظ له، وصحيح مسلم، برقم (٢٨٤٦).

([٢٧٥]) صحيح البخاري، برقم ٧ (٤١٤) ، صحيح مسلم، برقم (٧١) واللفظ له.

قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبح، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» [٢٧٦].

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بينما كلب يطيف بركيّة كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيّ من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به»[٢٧٧].

وعن عبد الله بن مسعود– رضي الله عنه– قال: كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حمّرة [٢٧٨] معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمّرة فجعلت تفرّش[٢٧٩]جاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردّوا ولدها إليها» ورأى قرية نمل قد حرّقناها، فقال: «من حرّق هذه؟»، قلنا: نحن، قال: «إنّه لا ينبغي أن يعذّب بالنّار إلّا ربّ النّار»[٢٨٠].

وعن أنس بن مالك– رضي الله عنه – أنّه دخل دار الحكم بن أيّوب فرأى غلمانا– أو فتيانا– نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس: «نهى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن تصبر البهائم»[٢٨١].

([٢٧٦]) صحيح مسلم، برقم (١٩٥٥).

([٢٧٧]) صحيح البخاري، برقم (٣٤٦٧) ، وصحيح مسلم، برقم (٢٢٤٥).

([٢٧٨]) الحمرة: طائر صغير يشبه العصفور.

([٢٧٩]) تفرش: هو أن تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف

([٢٨٠]) صحيح سنن أبي داود، للألباني، برقم(٤٣٨٨).

([٢٨١]) صحيح البخاري، برقم (٥٥١٣) ، وصحيح مسلم، برقم (١٩٥٩)، تصبر البهائم: أي تحبس لترمى حتى تموت.

الدعاء بالرحمة

على الداعية والخطيب أن يدعو في خطبه ومواعظه بالرحمة والمغفرة لمن عمل عملاً يستحق به أن ينال رحمة الله تعالى، وأسوته في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان صلى الله عليه وسلم يدعو لمن فعل بعض الأعمال الصالحة، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «رحم الله رجلا قام من اللّيل فصلّى، ثمّ أيقظ امرأته فصلّت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من اللّيل فصلّت، ثمّ أيقظت زوجها فصلّى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[٢٨٢].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:« رحم الله امرأ صلّى قبل العصر أربعا»[٢٨٣].

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «رحم الله المحلّقين» . قالوا: والمقصّرين يا رسول الله. قال: «رحم الله المحلّقين»، قالوا: والمقصّرين يا رسول الله. قال:« رحم الله المحلّقين»، قالوا: والمقصّرين يا رسول الله. قال: «والمقصّرين» [٢٨٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:« الرّاحمون يرحمهم الرّحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السّماء» [٢٨٥].

([٢٨٢]) صحيح سنن النسائي، للألباني، برقم (١٥١٩).

([٢٨٣]) سنن الترمذي، برقم (٤٣٠) وقال: هذا حديث غريب حسن.

([٢٨٤]) صحيح البخاري، برقم (١٧٢٧) ، وصحيح مسلم، برقم (١٣٠١) واللفظ له.

([٢٨٥]) سنن الترمذي، برقم (١٩٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: سمع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رجلا يقرأ في المسجد. فقال: «رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهنّ من سورة كذا وكذا» ، وزاد عبّاد بن عبد الله عن عائشة: تهجّد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بيتي فسمع صوت عبّاد يصلّي في المسجد. فقال:« يا عائشة أصوت عبّاد هذا؟»، قلت: نعم. قال: «اللهمّ ارحم عبّادا» [٢٨٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:« الملائكة تصلّي على أحدكم ما دام في مصلّاه الّذي صلّى فيه ما لم يحدث، تقول: اللهمّ اغفر له، اللهمّ ارحمه» [٢٨٧].

فعلى الداعية والخطيب أنْ يَكونَ ذا قلبٍ يَنْبِضُ بِالرّحمة والشفقة على الناس الذين يدعوهم إلى الله تعالى، وعليه أن يشعرهم أنه يريد لهم الخير بنصحهم ودعوتهم إلى الله تعالى، وأن في استجابتهم لدعوته نجاتهم من النار، وفوزهم بالجنة.

([٢٨٦]) صحيح البخاري، برقم (٢٦٥٥) واللفظ له، وصحيح مسلم، برقم (٧٨٨).

([٢٨٧]) صحيح مسلم، برقم (٦٤٩).

سادساً: أن يكون الخطيب قدوة حسنة

الخطيب ليس آلة صماء تُسْمِعُ الناس كلمات بمجرد الضغط على زر التشغيل فيها، ولكنه قدوة حسنة متحركة، يسمع الناس أقواله، ويراقبون أفعاله وأحواله، فإذا كان مطبقاً لما يقوله خرجت كلماته من القلب ووصلت إلى القلب، وإلا كانت كلماته كالحرث في الماء، والبذر في الهواء، فسرعان ما يزول أثر خطبه وينعدم نفعها.

والأصل في الخطيب أن يقدِّم بين يدي كلماته أسوة طيبة وقدوة صالحة، بحيث تخرج الكلمات من قلبه المنفعل بها، ويعبر عنها لسانه الصادق اللهجة فيها، وبهذا تتأثر بكلامه القلوب، وتنفعل بصدق حديثه النفوس.

وهذا ما كان عليه أنبياء الله ورسله، فما من نبي ولا رسول إلا وكان قدوة صالحة للناس فيما يدوهم إليه، فهذا سيدنا شعيب عليه السلام- وهو المعروف بأنه خطيب الأنبياء – يحكي القرآن الكريم قوله لقومه:﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [٢٨٨].

والناس ينظرون إلى الداعية والخطيب نظرة دقيقة فاحصة دون أن يعلم، فربَّ عمل يقوم به لا يلقي له بالًا يكون في حسابهم من الكبائر، وذلك أنهم يعدونه قدوة لهم، لهذا جعل الله تعالى من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة

([٢٨٨]) هود: ٨٨.

لأمته، قال تعالى:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢٨٩).

قال شيختا العلامة الدكتور عبد الكريم زيدان:" تبليغ الدّعوة إلى الله يكون بالقول وبالعمل وبسيرة الدّاعي الّتي تجعله قدوة حسنة لغيره فتجذبهم إلى الإسلام"(٢٩٠)

ومما قيل شعراً في هذا المعنى، قول أبي الأسود الدؤلي:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... ... هلا لنفسك كان ذا التعليم؟

تصف الدواء لذي السقام وذى الضنى .. كيما يصح به وآنت سقيم

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... ... عار عليك إذا فعلت عظيم

أبدأ بنفسك فانهها عن غيها ... ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك تسمَعٌ إن وعظت ويقْتَدَي ... بالقول منك ويقْبَلٌ التعليم(٢٩١).

ولرسولنا صلى الله عيه وسلم مواقف كثيرة جعل من نفسه قدوة حسنة لأصحابه، ففي خطبته في حجة الوداع دعا الناس إلى التخلي عن أمور الجاهلية، ولم يكتفي بمجرد الكلام في الخطبة ، بل أعطى لهم من نفسه القدوة الحسنة، فأول ما وضعه من دماء وربا الجاهلية دماء وربا أهله وقرابته، فكان مما قاله في خطبة حجة الوداع:" إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن

---

(٢٨٩) الأحزاب: ٢١.

(٢٩٠) أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان، صـ٤٧٠ .

(٢٩١) شذور الذهب، لابن هشام، صـ ٢٣٨.

الحارث.... وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله"[٢٩٢].

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما فعله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فقد دعا أصحابه إلى حلق شعورهم ونحر هديهم الهدى والتحلل فلم يفعلوا شيئاً من ذلك؛ بسبب ملاحظاتهم على بعض شروط صلح الحديبية، فدخل صلى الله عليه وسلم على أم المؤمنين أم سلمة رضى اللّه عنها وقصَّ ما حدث من أصحابه، فقالت له:" يا نبي الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما" [٢٩٣].

ويحسن بالخطيب القدوة أن يبعد نفسه عن مواضع الظنون السيئة ومواقع التأويلات الفاسدة، وأن يحرص على سمعته بين الناس، وله في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة في ذلك، فقد جاءت أم المؤمنين صفية بنت حيي زوج رسول الله، – صلى الله عليه وسلم – لتزوره في معتكفه في المسجد في العشر الأخير من رمضان، فمكثت عنده وتحدثت ساعة ثم قامت راجعة إلى بيتها، فقام معها النبي، – صلى الله عليه وسلم – مصاحبًا لها حتى يبلغها بيتها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله، – صلى الله عليه وسلم – فقال لهما النبي، – صلى الله

([٢٩٢]) صحيح مسلم، كتاب الحج– باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، برقم(٢١٣٧).

([٢٩٣]) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، والمصلحة، برقم(٢٥٢٩).

عليه وسلم –:" على رسلكما إنما هي صفيةُ بنت حيي فقالا: سبحان الله يا رسول الله وكَبُر عليهم فقال النبي، – صلى الله عليه وسلم – إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئا " [٢٩٤] .

إن مئات الخطب والمواعظ الرنانة لا تفعل في النفوس فعل القائد الشجاع القدوة لأصحابه في ميادين القتال والجهاد، فهو ينقض على صفوف الأعداء ويتقدم جنوده ليقودهم إلى النصر المؤزر، ذلكم هو موقف القائد القدوة محمد بن عبد الله، – صلى الله عليه وسلم – في سائر غزواته ومعاركه.

ففي غزوة حنين كانت الغلبة في ساعاتها الأولى لثقيف وهوازن؛ لأنهما كانتا قد سبقتا إلى أرض المعركة واحتلتا مضايق الوادي، وسيطروا على المواقع المنيعة والحصينة، وكانوا رماة لا يخطئون، ولما وصل المسلمون بادروهم بوابل من السهام، فحصل صفوفهم ارتباك فولى الكثير منهم مدبرين من أرض المعركة، وقد وصف الله تعالى هذه الحالة بقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [٢٩٥]، وهنا ظهرت قدوة النبي صلى الله عليه وسلم في جانب الشجاعة، وانحاز النبي القائد ذات اليمين مناديًا في الناس:" هلموا إليَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله " [٢٩٦].

([٢٩٤]) صحيح البخاري، باب الاعتكاف، برقم (١٩٣٠)، صحيح مسلم، كتاب السلام، برقم (٢١٧٥).

([٢٩٥]) التوبة: ٢٥.

([٢٩٦]) مسند أحمد ٣/٣٧٧.

ولنترك العباس – رضي الله عنه– يروي موقف القدوة النبوية في هذا الجانب قال رضي الله عنه: " شهدت مع رسول الله، – صلى الله عليه وسلم – يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله، – صلى الله عليه وسلم – فلم نفارقه ورسول الله، – صلى الله عليه وسلم – على بغلة بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولي المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله يُركض بغلته قِبَل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله، – صلى الله عليه وسلم – أكفها إرادة ألا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله، – صلى الله عليه وسلم – فقال رسول الله: أي عباس ناد أصحاب السَمُرَة فقال عباس – وكان رجلًا صَيتا– فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ يقول العباس: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا: يا لبيك يا لبيك، ال فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا يا بني الحارث بن الخزرج يا بني الحارث بن الخزرج فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حين حمي الوطيس قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد قال فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا"[٢٩٧].

([٢٩٧]) صحيح مسلم، برقم(٣٣٢٤).

وفزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله، – صلى الله عليه وسلم – راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عرى في عنقه السيف وهو يقول مهدئًا من روعهم لم تراعوا، لم تراعوا " [٢٩٨] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة لأمته في العبادات والطاعات، وهدية في ذلك خير الهدي، ومن لم يتأسى برسول الله في ذلك ربما ينم على ذلك فيما بعد، عن عبد الله بن عمرو قال

أنكحني أبي امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها فتقول نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا ولم يفتش لنا كنفا منذ أتيناه فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال القني به فلقيته بعد فقال كيف تصوم قال كل يوم قال وكيف تختم قال كل ليلة قال صم في كل شهر ثلاثة واقرإ القرآن في كل شهر قال قلت أطيق أكثر من ذلك قال صم ثلاثة أيام في الجمعة قلت أطيق أكثر من ذلك قال أفطر يومين وصم يوما قال قلت أطيق أكثر من ذلك قال صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وإفطار يوم واقرأ في كل سبع ليال مرة فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذاك أني كبرت وضعفت فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما

([٢٩٨]) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير (٢٧٥١)، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، برقم (٢٣٠٧).

وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئا فارق النبي صلى الله عليه وسلم عليه[٢٩٩] .

فالدعوة بالقدوة الحسنة تتميز بسهولة فهم الناس لها على اختلاف ثقافاتهم، وسرعة تأثرهم بها عن أي كلام يقال؛ لأجل ذلك كانت دعوة القرآن إلى ضرورة الجمع بين إصلاح النفس ودعوة الغير، فقال: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾ [٣٠٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ ﴾ [٣٠١] .

في الوقت نفسه ذم القرآن الكريم من يفضلون بين القول والعمل، والتوجيه والسلوك، بحيث يبدو كلامهم متعارضاً مع أفعالهم، فقد تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [٣٠٢]، وقال تعالى ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ ﴾ [٣٠٣] .

([٢٩٩]) صحيح البخاري، برقم(٤٦٦٤).

([٣٠٠]) الشورى : ١٥.

([٣٠١]) فصلت :٣٣.

([٣٠٢])الصف:٢- ٣.

([٣٠٣]) سورة البقرة :٤٤.

وعقوبة الدعاة المخالفة أفعالهم لأقوالهم في الآخرة وخيمة، " يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار[٣٠٤] ، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال. كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنها كم عن المنكر وآتيه" [٣٠٥] .

فمن الصفات المهمة للداعية والخطيب أن يجعل من نفسه قدوة حسنة لغيره، فيرى فيه الناس معاني الإِسلام، التي يتحدث عنها الخطيب في خطبه؛ فيمتثلون ما يأمرهم به ، وينتهون عما نهاهم عنه، لأن تأثر الناس بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من تأثرهم بالكلام وحده.

والإِسلام إنما انتشر في كثير من بلاد الدنيا بالقدوة الحسنة من قبل المسلمين، وهذه القدوة كانت تبهر أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناق الإِسلام، فالقدوة الحسنة هي دعوة عملية للإِسلام يستدل بها سليم الفطرة، راجح العقل، صدق الداعية وما يدعوهم إليه.

فليحرص الداعية على أن يكون قدوة حسنة لمن يدعوهم، وأن تطابق أقواله لأفعاله وأن يجاهد نفسه على ذلك قد الاستطاعة.

---

(٣٠٤) فتندلق أقتابه، الأقتاب: الأمعاء، وأحدها (قتْب) بالكسر، والاندلاق خروج الشيء، النهاية في غريب الحديث، ٤/ ١١.

(٣٠٥) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم(٣٠٢٧).

سابعاً: الصدق مع الله تعالى

ومن الصفات الأساسية التي ينبغي يتصف بها الخطيب والداعية أن يكون صادقاً؛ لأن الله تعالى قد أمر بالصِّدْقِ ومَدَح أهْلَه وبَيّنَ جَزاءهم؛ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [٣٠٦]، قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية:" أي يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، وكونوا فى الدنيا من أهل ولايته وطاعته تكونوا فى الآخرة مع الصادقين فى الجنة، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف"[٣٠٧].

وبين الله سبحانه وتعالى أنه في يوم القيامة ينفع الصادقين صدقهم، وأنهم سيفوزون برضوان الله والجنة: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [٣٠٨]، قال الشيخ الشعراوي في تفسيره عند هذه الآية:" هناك صدقاً ينفع يوم القيامة وهو الصدق الموصول بصدق الدنيا، وهناك صدق لا ينفع يوم القيامة ومثال ذلك قول إبليس اللعين كما يحكي القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ ﴾ [٣٠٩] .

([٣٠٦]) التوبة: ١١٩.

([٣٠٧]) تفسير المراغي (١١/ ٤٣).

([٣٠٨]) المائدة: ١١٩.

([٣٠٩]) إبراهيم : ٢٢.

مثل هذا الصدق لا ينفع أحداً؛ لأن الآخرة ليست دار التكليف، لكن الصدق الموصول بصدق الدنيا هو قول عيسى عليه السلام: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾[٣١٠]،ولذلك يقول الله في الصدق الموصول: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ ؛ ذلك أن صدق الصادقين يوم القيامة هو صدق موصول بصدقهم في زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ وإن تساءل إنسان: كيف يرضى العبد عن ربه؟ نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم في الآخرة يمتلئون بالحبور ويقولون:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [٣١١].

هذه الآية التي تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ كأن هناك فوزاً سطحياً، وفوزاً عظيماً، والفوز السطحي: هو ما يعطيه الإنسان لنفسه في دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل فيبدو ظاهرياً وكأنه قد فاز، وفي الحقيقة ليس هو الفوز العظيم؛ لأن الندم سيعقبه، وأي لذة يعقبها الندم ليست فوزاً؛ لأن الدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره، وهو نعيم مهدد بشيئين؛ أن يزول النعيم عن الإنسان، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم، أو أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت، ونرى ذلك كثيراً .

([٣١٠]) المائدة: ١١٦

([٣١١]) الزمر : ٧٤.

أما النعيم الذي هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذي لا يمنعه أحد، ولا يقطعه شيء "[٣١٢].

الصادق الأمين

وعلى الخطيب والداعية أن يبين للناس أن إمام الصادقين هو محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كانت حياته صلّى الله عليه وسلّم حافلة في الصدق، وقد كان ذلك فيه بمثابة السّجيّة والطّبع، وقد عرف بذلك حتّى قبل البعثة، وكان لذلك يلقّب بالصّادق الأمين، واشتهر بهذا وعرف به بين أقرانه، وقد اتّخذ صلّى الله عليه وسلّم من الصّدق الّذي اشتهر به بين أهله وعشيرته مدخلا إلى المجاهرة بالدّعوة، إذ إنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[٣١٣] جمع أهله وسألهم عن مدى تصديقهم له إذا أخبرهم بأمر من الأمور، فأجابوا بما عرفوا عنه قائلين: ما جرّبنا عليك إلّا صدقا، روى ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: «لمّآ نزلت ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ صعد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على الصّفا فجعل ينادي:« يا بني فهر، يا بني عديّ» لبطون قريش حتّى اجتمعوا، فجعل الرّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟» . قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلّا صدقا. قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» .فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم، ألهذا

([٣١٢]) تفسير الشعراوي، صـ ٢٤١٥.

([٣١٣]) الشعراء: ٢١٤.

جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ [المسد: ١ – ٢] [٣١٤].

وقد صدق الصحابة رسول الله عليه وسلم بكل ما أخبر به، فلمّا كان حادث الإسراء والمعراج، وأخبر به المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قريشا، اختلف النّاس بين مصدّق ومرتاب، ومندهش ومتحيّر، وقد ارتدّ نفر عن الإسلام عند ما حكّموا عقولهم القاصرة، وتجاربهم الّتي ألفوها، لكنّ أبا بكر عند ما أخبر بذلك لم يخالجه شكّ أو يقع في نفسه ريب وأعلن بملء فيه أنّ الرّسول صادق فيما أخبر به، وقد روى الحاكم في المستدرك عنه قوله: «لئن قال ذلك لقد صدق» . فتعجّبوا وقالوا: أو تصدّقه أنّه ذهب اللّيلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح؟ فقال: «وما يعجّبكم من ذلك! فو الله إنّي لأصدّقه بما هو أبعد من ذلك، أصدّقه في خبر السّماء في غدوة أو روحة» ثمّ أقبل على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يسأله عن وصفه، وكلّما ذكر شيئا قال: صدقت. أشهد أنّك رسول الله، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «وأنت يا أبا بكر الصّدّيق» [٣١٥].

علامة الصدق

وعلى الخطيب والداعية أن يبين للناس علامة الصدق التي يستدل بها على وجود الصدق عند صاحبها، ومن علامات الصدق طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب حصول الرّيبة؛

([٣١٤]) صحيح البخاري، برقم (٤٧٧٠) .

([٣١٥]) مستدرك الحاكم (٣/ ٦٢)، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٩٩) .

فعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة" [٣١٦] ، وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة وإنّ الرّجل ليصدق حتّى يكتب عند الله صدّيقا، وإنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذّابا"[٣١٧]، قال الإمام ابن القيم:" فجعل الصّدق مفتاح الصّدّيقيّة ومبدأها، وهي غايته، فلا ينال درجتها كاذب البتّة، لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله. ولا سيّما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، بنفي ما أثبته لنفسه، أو بإثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صدّيق أبدا، وكذلك الكذب عليه في دينه، وشرعه بتحليل ما حرّمه، وتحريم ما أحلّه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وكراهة ما أحبّه، واستحباب ما لم يحبّه، كلّ ذلك مناف للصّدّيقيّة، وكذلك الكذب معه في الأعمال بالتّحلّي بحلية الصادقين المخلصين، الزّاهدين المتوكّلين وليس منهم، وكانت الصّدّيقيّة كمال الإخلاص، والانقياد والمتابعة في كلّ الأمور؛ حتّى إنّ صدق المتبايعين يحلّ البركة في بيعهما، وكذبهما يمحو بركة بيعهما. كما في الصّحيحين: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما» [٣١٨].

([٣١٦]) سنن الترمذي، برقم(٢٩٣٠) وقال حديث حسن صحيح.

([٣١٧]) صحيح البخاري، برقم(٥٦٢).

([٣١٨]) صحيح البخاري، برقم(١٩٣٧)

به عزمه عن الجد في جميع أحواله فلا تراه إلا جادا وأمره كله جد"[٣١٩] .

الصدق من أسباب دخول الجنة

وعلى الخطيب أن يبين للناس في خطبه أن الصدق من أسباب دخول الجنة، وعليه أن يسوق الأدلة الدالة على ذلك، ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: « إنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وإنّ الرّجل ليصدق حتّى يكون صدّيقا، وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، وإنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذّابا» [٣٢٠].

وعن أبي سعيد الخدريّ- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «إنّ أهل الجنّة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدّرّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والّذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين» [٣٢١].

وعن عبادة بن الصّامت- رضي الله عنه- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «اضمنوا لي ستّا من أنفسكم أضمن لكم الجنّة: أصدقوا إذا حدّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم» [٣٢٢].

([٣١٩]) مدارج السالكين لابن قيم الجوزي (٤٣/ ١٤).

([٣٢٠]) سبق تخريجه قبل قليل.

([٣٢١]) صحيح البخاري، برقم (٣٢٥٦) واللفظ له، وصحيح مسلم، برقم (٢٨٣١).

([٣٢٢]) مستدرك الحاكم (٤/ ٣٥٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. ولم يخرجاه وصححه الذهبي.

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم- ومعاذ رديفه على الرّحل-، قال:« يا معاذ بن جبل» . قال: لبّيك يا رسول الله وسعديك. قال: «يا معاذ» . قال: لبّيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثا) . قال: «ما من أحد يشهد أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمّدا رسول الله صادقا من قلبه إلّا حرّمه الله على النّار»، قال: يا رسول الله أفلا أخبر به النّاس فيستبشروا؟ قال: «إذا يتّكلوا»، وأخبر بها معاذ عند موته تأثّما [٣٢٣].

وعن طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه- أنّ أعرابيّا جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثائر الرّأس فقال: يا رسول الله، أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصّلاة؟ فقال: «الصّلوات الخمس إلّا أن تطوّع شيئا»، فقال: أخبرني بما فرض الله عليّ من الصّيام؟ فقال: «شهر رمضان إلّا أن تطوّع شيئا» . فقال: أخبرني ما فرض الله عليّ من الزّكاة؟ قال: فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بشرائع الإسلام. قال: والّذي أكرمك بالحقّ، لا أتطوّع شيئا ولا أنقص ممّا فرض الله عليّ شيئا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أفلح إن صدق، أو دخل الجنّة إن صدق»[٣٢٤].

([٣٢٣]) صحيح البخاري، برقم (١٢٨).

([٣٢٤]) صحيح البخاري، برقم (١٨٩١) واللفظ له. وصحيح مسلم، برقم (١١) .

أنواع الصدق

وعلى الخطيب أن يبين للناس أنواع الصدق، ويحثهم على الاتصاف بها ، وهذه الأنواع هي:

أولا: الصدق في الأقوال

وهذا أشهر أنواع الصدق وأظهرها فواجب على كل عبد حفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ويدخل في هذا مراعاة معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، فهذ أنس ابن النضر يعاهد ربه ثم فيصدق مع الله فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله تعالى عنه عن قتال بدر، فقال: يارسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني: أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني: المشركين ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنهم أجمعين فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال أنس: فوجدنا به بعضا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد مثَّلَ به المشركون، فما عرفه أحد إلا ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه، وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الاحزاب: ٢٣] [٣٢٥].

ومن الأقوال التي ينبغي الحرص على الصدق فيها: الحلف والقسم، فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يحلف

---

[٣٢٥] رواه البخاري برقم (٢٥٩٥).

بأبيه فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق ومن حُلِفَ له بالله فليرض ومن لم يرض بالله فليس من الله"[٣٢٦].

كما ينبغي على الخطيب أن يبين للناس أن الصدق في الأقوال من أسباب حصول البركة في البيع والشراء، فعن حكيم بن حزام- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا أو قال: حتّى يتفرّقا- فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما" [٣٢٧].

كما أنه يجب على الخطيب أن يبين للناس أن الكذب في البيع ولشراء من أسباب حلول سخط الله وعذابه على العبد، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم. رجل كان له فضل ماء بالطّريق فمنعه من ابن السّبيل، ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلّا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الّذي لا إله غيره لقد أعطيت بهذا كذا وكذا، فصدّقه رجل، ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧ ﴾ [آل عمران: ٧٧] »[٣٢٨].

---

[٣٢٦] صحيح الترغيب برقم (٢٩٥١).

[٣٢٧] سبق تخريجه قبل قليل .

[٣٢٨] صحيح البخاري، برقم (٢٣٥٨).

كما ينبغي على الخطيب أن يبن للناس أن على الإنسان أن يقبل القول الصادق ولوجاءه من الشيطان، فعن أبيّ بن كعب- رضي الله عنه- أنّه كان له جرين [٣٢٩] تمر، فكان يجده ينقص، فحرسه ليلة، فإذا هو بمثل الغلام المحتلم فسلّم عليه، فردّ السّلام فقال: أجنّي أم إنسيّ؟ فقال: بل جنّي. فقال: أرني يدك فأراه، فإذا يد كلب وشعر كلب، فقال: هكذا خلق الجنّ، فقال: لقد علمت الجنّ أنّه ليس فيهم رجل أشدّ منّي. قال: ما جاء بك؟ قال: أنبئنا أنّك تحبّ الصّدقة، فجئنا نصيب من طعامك. قال: ما يجيرنا منكم؟ قال: تقرأ آية الكرسيّ من سورة البقرة اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ قال: نعم. قال: إذا قرأتها غدوة أجرت منّا حتّى تمسي، وإذا قرأتها حين تمسي أجرت منّا حتّى تصبح. قال أبيّ: فغدوت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته بذلك. فقال «صدق الخبيث»[٣٣٠] .

ثانيا: الصدق في الأفعال

كما ينبغي على الخطيب أن يبين للناس النوع الثاني من أنواع الصدق، وهو الصدق في الأفعال، وهو استواء الفعل على الأمر والمتابعة، وهو أن تُصَدِّقْ السريرة العلانية حتى لا تدل أعمالهم الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، والباطن بخلافه، فالمراؤون أعمالهم الظاهرة بخلاف بواطنهم، فلذلك ليسوا بصادقين في أعمالهم، بل هم من الكذابين، والأمثلة على الصدق في الأفعال وإخلاصها لله تعالى كثيرة ومنها: قصة الثلاثة الذين أطبق عليهم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٣٢٩) الجرن: هو موضع تجفيف التمر، وهو له كالبيدر للحنطة.

(٣٣٠) مستدرك الحاكم (١/ ٥٦٢) وقال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

يقول:" انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج، قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما

نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون"[٣٣١]، فكان كل واحد يذكر أرجى ما عمل في حياته لله وأصدق ما حصل منه لله حتى كان السبب في انفراج الصخرة عنهم من باب الغار.

كما ينغي على الخطيب أن يحذر الناس من الكذب في الأفعال، من أمثلة الكذب في الأفعال ما فعله إخوة يوسف:﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[٣٣٢] جعلوا في القميص دما، ليقولوا: إن الذئب قد أكله، ولكن نبي الله يعقوب عليه السلام بفطنته وفراسته عرف أن هذا القميص مصبوغ بدم كذب، فليس فيه تشقيق ولا آثار مخالب ولا أنياب، فاستغرب من كلامهم واستعجب وقال:﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾.

ثالثا: الصدق في النية والإرادة

كما ينبغي على الخطيب أن يبين للناس النوع الثالث من أنواع الصدق، ومن الأمثلة التي وردت في السنة للدلالة على الصدق في النيات والإرادة ما جاء في حديث شداد بن الهاد: أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شيئا، فقسم وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له لكي يوصلوه إلى الأعرابي، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاءوه دفعوا إليه نصيبه، فقال: ما هذا؟

([٣٣١]) صحيح البخاري برقم (٢٢٧٢).

([٣٣٢]) يوسف: ١٨.

قالوا: قسم لك النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا تبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن تصدق الله يصدقك" والمعنى: إن كانت فعلا هذه نيتك صدقت الله فالله يصدقك، فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد أصابه سهم حيث أشار في نفس المكان الذي أشار إليه فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه، ثم كفنه النبي صلى الله عليه وسلم في جبته صلى الله عليه وسلم، ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته: "اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا أنا شهيد على ذلك"[٣٣٣].

ومن الأدلة على الصدق في النية والإرادة حديث أبي كبشة الأنماريّ- رضي الله عنه- أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ثلاثة أقسم عليهنّ وأحدّثكم حديثا فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلّا زاده الله عزّا، ولا فتح عبد باب مسألة إلّا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها، وأحدّثكم حديثا فاحفظوه، قال: إنّما الدّنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتّقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقّا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النّيّة يقول : لو أنّ لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيّته فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتّقي فيه ربّه،

[٣٣٣] صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٣٣٦).

ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقّا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو أنّ لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيّته، فوزرهما سواء»[٣٣٤].

فالصدق من الصفات الأساسية التي يجب على كل داعية وخطيب أن يتصف بها؛ حتى يوفقه الله في دعوته، ويسدده في أقوله وأفعاله [٣٣٥].

([٣٣٤]) سنن الترمذي، برقم (٢٣٢٥) وقال: حديث حسن صحيح.

([٣٣٥]) للتوسع في صفة الصدق راجع كتابي مكارم الأخلاق ، صـ ٣٤.

ثامنا: الـصـبر على مكاره الدعوة

الصبر من أهم الأخلاق التي يجب على الداعية والخطيب أن يتخلق به، وقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر حين كلفه لأول مرة بالدعوة إليه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾ [٣٣٦]، قال الشيخ السعدي في تفسيره عند هذه الآية، قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر ربه، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس –بعد منة الله– من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورا، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين"[٣٣٧].

ثم أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يلاقيه في طريق الدعوة، ونهاه عن الاستعجال في طلب حلول العذاب على المكذبين له ولدعوته، فقال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾

([٣٣٦]) المدثر: ١ – ٧.

([٣٣٧]) تفسير السعدي، صـ ٨٩٥.

[٣٣٨]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ أي: يا محمد اصبر على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم مثبته على المضيّ لما قلَّده من عبْء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، وآمره بالائتساء بأولي العزم من قبله من رسله، الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد، وأولي العزم منهم، كانوا الذين امتُحِنوا في ذات الله في الدنيا بِالمحَن، فلم تزدهم المحن إلا جدّا في أمر الله، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم، وقوله: ﴿ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ يقول: ولا تستعجل عليهم بالعذاب، يقول: لا تعجل بمسألتك ربك ذلك لهم فإن ذلك نازل بهم لا محالة"[٣٣٩] .

وقد قصَّ الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قصص الأنبياء من قبله ممن كذبهم قومهم، ولكنهم صبروا على ما كذبوا؛ حتى جاءهم نصر الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِئ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤ ﴾[٣٤٠]، قال سيد قطب في ظلاله عند هذه الآية:" كلمات يقولها الله – سبحانه – لرسوله – صلى الله عليه وسلم – كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، والتأسية، وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طريقهم واضحاً، ودورهم

([٣٣٨]) الأحقاف:٣٥.

([٣٣٩]) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٥، باختصار وتصرف.

([٣٤٠]) الأنعام: ٣٤.

محدداً، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق .

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة، كما أنها كذلك وحدة واحدة لا تتجزأ ، دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقى أصحابها بالأذى، وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى، وسنة تجري بالنصر في النهاية، ولكنها تجيء في موعدها، لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حباً في هدايتهم، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة ، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والأخرة، لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله.

فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه، ولا مبدل لكلماته، سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم، أم تعلقت بالأجل المرسوم.

إنه الجد الصارم، والحسم الجازم، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية،

ثم يبلغ الجد الصارم مداه، في مواجهة ما عساه يعتمل في نفس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الرغبة البشرية، المشتاقة إلى هداية قومه، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون، وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين، والتي تشير إليها آيات أخرى في

السورة آتية في السياق . وهي رغبة بشرية طبيعية، ولكن في صدد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين ، تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم"[٣٤١].

فعلى الخطيب والداعية أن يوطن نفسه على تحمل الأذى الذي سوف يناله، وهو سائر في طريق الدعوة إلى الله تعالى، وقد حكى الله تعالى على لسان لقمان وهو يعض ولده آمراً له بالصبر على ما أصابه وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فقال له:﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [٣٤٢] ، قال ابن عاشور في تفسيره عند هذه الآية:" وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها، وشمل الأمرُ بالمعروف الإتيانَ بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال، كما شمل النهيُ عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك، ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه؛ ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يَجران للقائم بهما معاداةً من بعض الناس أو أذى من بعض فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شك أن يتركهما.

ولما كانت فائدة الصبر عائدة على الصابر بالأجر العظيم عُدَّ الصبر هنا في عداد الأعمال القاصرة على صاحبها ولم يلتفت إلى ما في تحمل أذى الناس

([٣٤١]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٣/ ١٨.

([٣٤٢]) لقمان: ١٧.

من حسن المعاملة معهم حتى يذكر الصبر؛ لأن ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر .

والإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى المذكور من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب . والتأكيد للاهتمام . والعزم مصدر بمعنى : الجزم والإلزام . والعزيمة : الإرادة التي لا تردد فيها، و ﴿ عَزۡمِ ﴾ مصدر بمعنى المفعول ، أي من معزوم ﴿ ٱلۡأُمُورِ ﴾، أي التي عزمها الله وأوجبها"[٣٤٣].

ولقد احتمل صلى الله عليه وسلم في دعوته للحق الكثير من الشدائد والأذى، وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته أو يثبطه في دعوته، وله في ذلك الكثير من المواقف التي تشهد على قوة صبره وتحمله في سبيل الله تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها– زوج النّبي صلّى الله عليه وسلّم: أنّها قالت للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت، وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثّعالب. فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلّم عليّ ثمّ قال: يا محمّد! فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن

(٣٤٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١١/ ١٢٨، باختصار.

أطبق عليهم الأخشبين، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:" بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» [٣٤٤].

وعن أنس بن مالك– رضي الله عنه–، أنّ أناسا من الأنصار قالوا يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعطي رجالا من قريش المائة من الإبل، قالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!، قال أنس بن مالك فحدّث ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، من قولهم. فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبّة من أدم، فلمّا اجتمعوا جاءهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أمّا ذوو رأينا، يا رسول الله! فلم يقولوا شيئا.

وأمّا أناس منّا حديثة أسنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم!، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «فإنّي أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألّفهم. أفلا ترضون أن يذهب النّاس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فو الله! لما تنقلبون به خير ممّا ينقلبون به» فقالوا: بلى. يا رسول الله! قد رضينا. قال: «فإنّكم ستجدون أثرة [٣٤٥] شديدة. فاصبروا حتّى تلقوا الله ورسوله. فإنّي على الحوض» .قالوا: سنصبر" [٣٤٦].

وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه: أنّ ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأعطاهم، ثمّ سألوه فأعطاهم. حتّى إذا نفد ما عنده قال:

([٣٤٤]) صحيح البخاري، برقم(٣٢٣١) واللفظ له، صحيح مسلم، برقم، (١٧٩٥).

([٣٤٥]) الأثرة الاستئثار بالشيء بالمشترك.

([٣٤٦]) صحيح البخاري، برقم (٣٧٩٣) ، وصحيح مسلم، برقم (١٠٥٩)، واللفظ له.

«ما يكن عندي من خير فلن أدّخره عنكم. ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله. ومن يصبر يصبّره الله وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصّبر" (٣٤٧).

فعلى الداعية والخطيب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره وأن يواصل السير في سبيل دعوته مهما لاقى من صعاب وناله من أذى، وقد قال الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ (٣٤٨).

وليعلم الداعية والخطيب أنه بصبره على طريق الدعوة، وبيقينه بنصر الله تأييد ينال الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ ﴾ (٣٤٩)قال الإمام ابن كثير:" سئل سفيان عن قول علي، رضي الله عنه الذي قال فيه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فقال سفيان ألم تسمع قوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، فلما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسًا. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين"(٣٥٠).

وليعلم الداعية أنه متى ما تصدر لدعوة الخلق والحرص على هدايتهم، فإنه سيتعرض لغمز الناس وأذاهم، وقلَّ من يسلم من ذلك، وعليه أن يواجه ذلك

---

(٣٤٧) صحيح مسلم، برقم (١٠٥٣).

(٣٤٨) غافر: ٧٧.

(٣٤٩) السجدة: ٢٤.

(٣٥٠) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٧٢، بتصرف يسير.

بالصبر والاحتساب وعدم المبالاة بكلام الناس، قال الإمام ابن حرم:" من قدّر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون، من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه؛ لأن مدحهم إياه إن كان بحق وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه الْعُجْب فأفسد بذلك فضائله، وإن كان بباطل فبلغه فسره فقد صار مسروراً بالكذب وهذا نقص شديد.

وأما ذم الناس إياه فإن كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا ناقص، وإن كان بباطل وبلغه فصبر اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر وكان مع ذلك غانماً؛ لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل، فيحظى بها في دار الجزاء أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا مجنون"[٣٥١].

وقال ابن حبان:" الصبر جماع الأمر، ونظام الحزم ودِعَامة العقل، وبذر الخير، وحيلة من لا حيلة له، وأول درجته الاهتمام، ثم التيقظ، ثم التثبت، ثم التصبر ثم الصبر ثم الرضا، وهو النهاية في الحالات.

ويجب على العاقل إذا كان مبتدئاً أن يلزم عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر، فإذا تمكن منه حينئذ يرتقي من درجة الرضا، فإن لم يرزق صبرا فليلزم التصبر، لأنه أول مراتب الرضا، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلا كريماً، إذ هو بَذْر الخير، وأساس الطاعات"[٣٥٢].

([٣٥١]) الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم – صـ ٥٤.

([٣٥٢]) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان، صـ ٥٦.

الصفة التاسعة: الشجاعة

الشجاعة من أهم الصفات التي يحتاجها الخطيب؛ لأنه يواجه جموعا كثيرة من الناس المصلين، فيقف أمامهم خطيباً وواعظاً، والخطيب الشجاع لا يهاب الحديث أمام جموع الناس؛ لأنه يستعين بالله تعالى أولاً وأخيرا بعد أن يأخذ بالأسباب المتاحة، من تحضيره وأعداده لعناصر الخطبة.

ومعظم خصال الخير لا بتحقق بها إلا من كان من أصحاب النفوس الشجاعة، قال الطّرطوشيّ: واعلم أنّ كلّ كريهة ترفع، أو مكرمة تكتسب لا تتحقّق إلّا بالشّجاعة، ألا ترى أنّك إذا هممت أن تمنح شيئا من مالك خار طبعك، ووهن قلبك، وعجزت نفسك، فشححت به، وإذا حقّقت عزمك، وقوّيت نفسك، وقهرت ذلك العجز، أخرجت المال المضنون به، وعلى قدر قوّة القلب وضعفه تكون طيبة النّفس بإخراجه، أو كراهية النّفس لإخراجه مع إخراجه، وعلى هذا النّمط جميع الفضائل، مهما لم تقارنها قوّة نفس لم تتحقّق، وكانت مخدوعة. فالجبان يفرّ عن أمّه وأبيه. والشّجاع يقاتل عمّن لا يثوب به إلى رحله، فبقوّة القلب يصاب امتثال الأوامر والانتهاء عن الزّواجر، وبقوّة القلب يصاب اكتساب الفضائل، وبقوّة القلب ينتهى عن اتّباع الهوى والتّضمّخ بالرّذائل. وبقوّة القلب يصبر الجليس على إيذاء الجليس وجفاء الصّاحب، وبقوّة القلب يكتم الأسرار ويدفع العار، وبقوّة القلب يقتحم الأمور الصّعاب، وبقوّة القلب يتحمّل أثقال المكاره، وبقوّة القلب يصبر على أخلاق الرّجال، وبقوّة القلب تنفّذ كلّ عزيمة أوجبها الحزم والعدل.

وليس الصّبر والشّجاعة وقوّة النّفس أن تكون مصرّا في المحال لجوجا في الباطل، ولا أن تكون جلدا عند الضّرب، صبورا على التّعب، مصمّما على التّغرير والتّهوّر؛ فإنّ هذه صفة الحمير والخنازير، ولكن أن تكون صبورا على أداء الحقوق عليك، صبورا على سماعها وإلقائها إليك، غالبا لهواك، مالكا لشهواتك، ملتزما للفضائل بجهدك، عاملا في ذلك على الحقيقة الّتي لا يحيلك عنها حياة ولا موت، حتّى يكون عندك موتك على الخير الّذي أشار به العلم وأوجبه العدل، خيرا من البقاء على ما أوجب رفض العلم والعدل [٣٥٣] .

وقال الأبشيهيّ- رحمه الله تعالى-: اعلم أنّ الشّجاعة عماد الفضائل، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة يعبّر عنها بالصّبر وقوّة النّفس. قال الحكماء: وأصل الخير كلّه في ثبات القلب، والشّجاعة عند اللّقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأوّل إذا التقى الجمعان، وتزاحف العسكران وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصّفّ إلى وسط المعترك يحمل ويكرّ وينادي هل من مبارز، والثّاني إذا نشب القوم واختلطوا، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش، ساكن القلب، حاضر اللّبّ، لم يخالطه الدّهش، ولا تأخذه الحيرة، فيتقلّب تقلّب المالك الأموره، القائم على نفسه. والثّالث إذا انهزم أصحابه يلزم السّاقة، ويضرب في وجوه القوم، ويحول بينهم وبين عدوّهم، ويقوّي قلوب أصحابه، ويزجي الضّعيف، ويمدّهم بالكلام الجميل، ويشجّع نفوسهم، فمن وقع أقامه، ومن وقف حمله، ومن كبا به فرسه حماه حتّى ييأس العدوّ منهم. وهذا أحمدهم

([٣٥٣]) سراج الملوك للطّرطوشي (٢/ ٦٦٨- ٦٧٠) بتصرف يسير.

شجاعة، وعن هذا قالوا: إنّ المقاتل من وراء الفارّين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدّفاع عن الحرم [٣٥٤].

وقال الراغب الأصفهاني:" الشّجاعة إن اعتبرت وهي في النّفس، فصرامة القلب على الأهوال، وربط الجأش في المخاوف، وإن اعتبرت بالفعل فالإقدام على موضع الفرصة، وهي فضيلة بين التّهوّر والجبن، وهي تتولّد من الفزع والغضب إذا كانا متوسّطين؛ فإنّ الغضب قد يكون مفرطا كمن يحتدّ سريعا من أشياء صغيرة، وقد يكون مقصّرا كمن لا يغضب من الاجتراء على حرمه وشتم أبيه وأمّه، وقد يكون متوسّطا على ما يجب في وقت ما يجب، وبقدر ما يجب، وكذلك الفزع قد يكون مفرطا فيتولّد منه الجبن الهالع، ومقصّرا فيتولّد عنه الوقاحة والغمارة كمن لا يفزع من شتم آبائه وتضييع حرمه وأصدقائه، وقد يكون متوسّطا كما يجب وبقدر ما يجب ولكونهما أعني الغضب والفزع على حالين محمود ومذموم صارا يحمدان تارة ويذمّان أخرى؛ فإنّ الغضب في نحو قوله تعالى: وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ والفزع في نحو قول الشّاعر فزعت لظلمة ... إلخ ... محمودان، والتّهوّر هو الثّبات المذموم في الأمور المعطبة"[٣٥٥] .

ومن شجاعة الخطيب أن لا يهاب أحدًا في الجهر بقول الحق، وأن لا تأخذه في ذلك لومة لائم، ودليلة في ذلك ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عبادة بن الصامت –رضي الله عنه– قال: "بايعنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم"[٣٥٦] .

([٣٥٤]) المستطرف في كل فن مستطرف، للأشبيهي (١/ ٣١٠) .

([٣٥٥]) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، صـ ٣٢٨ .

([٣٥٦]) صحيح البخاري، كيف يبايع الإمام الناس، برقم(٦٦٦٠).

وعن أبي ذر –رضي الله عنه– قال: "أوصاني خليلي –صلى الله عليه وسلم– بخصال من الخير؛ أوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرًّا"[٣٥٧].

ومن شجاعة الخطيب أن لا يخشى أحداً من الخلق إذا رأى المكرات تشيع في المجتمع، وأخذ الناس يتعاطونها ولم ينكر عليهم أحد، هنا تظهر شجاعة الخطيب بأن يصدح بالحق، وأن يستشعر وقوفه بين يدي الله تعالى، وليعلم أن الله تعالى سوف يسأله أن ترك قول الحق في هذا الموطن، فعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: " لا يحقرن أحدكم نفسه، قالوا: يا رسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أن لله عليه مقالًا ثم لا يقول فيه، فيقول الله –عز وجل– يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس؛ فيقول الله –عز وجل–: فإياي كنت أحق أن تخشاه"[٣٥٨].

إلاَّ أنه ينبغي أن يتنبه الخطيب إلى أن الشجاعة لا تتنافى مع الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فعلى الخطيب أن يعلم متى تتكلم، ومتى تسكت؟ فقد يكون من الشجاعة أحياناً السكوت، وقد تكون الشجاعة في الكلام في أحيانٍ أخرى، وهذه الأحوال تضبطها مصلحة الدعوة والداعية، فليس من الحكمة أن يحرص الخطيب على أن يقول ما كل ما خطر بذهنه مهما ترتب

([٣٥٧]) صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، برقم(٢٣٢٠).

([٣٥٨]) سنن ابن ماجه، برقم (٤٠٠٨)، وقال رجاله ثقات، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، برقم(٦٣٣٢).

عليه من نتائج، وليس من الشجاعة أن يقول كلمة واحدة تكون هي آخر كلمة يقولها من على منبره، ويحرم بذلك نفسه من منبره ويحرم جمهوره من خطبه ومواعظة، والخطيب الموفق من نظر في عواقب الأمور، وكان حكيماً في كل أقواله وأفعاله.